15

الهوية

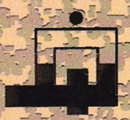
صدقي علي أزايكو

***

الإسلام والأمازيغ







البدايات الأولى لدخول

بلاد الأمازيغ في المجال الإسلامي

بحوث الهوية

1

الإسلام و الأمازيغ

أو

البدايات الأولى
لدخول بلاد الأمازيغ
في المجال الإسلامي

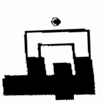
***

للباحث

صدقي علي أزايكو

يونيو 2002

الهوية ⵜⴰⵎⴰⴳⵉⵜ



من أجل ثقافة مغربية ديمقراطية

العدد الخامس عشر

***

مدير النشر

مبارك بولگيد

***

ملف الصحافة

92 / 8

***

الإيداع القانوني

154 / 93

***

الترقيم الدولي

1113 ـ 6219 TSSA

***

عنوان المراسلة:

تبعث المراسلات في اسم:

مبارك بولگيد ـ ص ب 217

أيت ملول.

***

التصميم والتصفيف

مكتبة اليراع ـ انزگان

***

مطبعة

دار أبي رقراق

للطباعة والنشر ـ الرباط

***

التوزيع :

سوشبريس

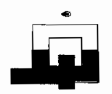
لوحة الغلاف

من إنجاز الفنانة حوزيكَ مليكة

(كَلداسنت)

أن يكون المرء ذاته، تلك هي الحياة.

هولدرلين





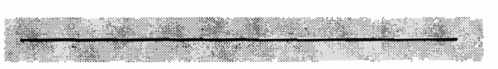
ⴰⴷ ⵉⴳ ⵓ ⵣⴳⴰⵏ ⴰⴳⴰⵎⵎⵓ ⵏⵙ,
ⵖⵜⴰⵍ ⴰⴷ ⵉⴳⴰⵏ ⵜⵓⴷⵔⵜ.

ⵀⵓⵍⴷⵔⵍⵉⵏ

أن يكون المرء ذاته، تلك هي الحياة.

هولدرلين





ⴰⴷ ⵉⴳ ⵓ ⵣⴳⴰⵏ ⴰⴳⴰⵎⵎⵓ ⵏⵙ,
ⵜⵜⴰⵏⵏ ⴰⴷ ⵉⴳⴰⵏ ⵜⵓⴷⵔⵜ.

ⵀⵓⵍⴷⵔⵍⵉⵏ

هذا البحث

ربما نسمع أو نقرأ في يوم من الأيام عن أطروحات تتناول موضوعات من المسكوت عنها في تاريخ بلد أو أكثر من البلدان، ونكتشف أن ذلك المسكوت عنه هو التاريخ الحقيقي، وأن الذي كنا نكتبه ونقرأه ما هو إلا دوران حول الحقائق أو على هامشها..

والأدهى والأمر من كل ذلك هو عملية تزييف التاريخ التي يلجأ إليها البعض عند ممارسته الكتابة التاريخية.

د. عبد المالك التميمي

❖❖❖

إذا نحن انطلقنا من كون التاريخ المكتوب عن شمال افريقيا تاريخا يعكس في الغالب وجهة نظر الإيديولوجيا العربية الإسلامية للأحداث والأخبار، سواء كان هذا التاريخ من إنجاز مؤرخي السلطة من ذوي الجنسية المغربية، أو من تحرير أجانب تدفعهم المصلحة الإثنية أو السياسية أو الاقتصادية أو المذهبية الدينية إلى تهميش أو انتقاء حدث أوتهويل قضية أواصطناع خبر، أو غير ذلك من أساليب تزييف الحقيقة التاريخية و«تعديلها» وأسطرتها لتخدم الإيديولوجيا المرغوبة..

وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار كون كثير من وثائق ومصادر تاريخ المنطقة قد فقدت، لأسباب معروفة أو مجهولة، أو أحرقت في إطار من سياسة التعصب المتعددة الخلفيات؛ تلك التي تستهدف، في النهاية، محو فكر «الآخر» وأحيانا ذاته، كلما تم «تداول» السلطة بين الفرق والمذاهب و«القبائل» المتصارعة،

ثم إذا نحن أضفنا - أخيرا - أن ما بين أيدينا الآن، من روايات وأخبار و«تحقيقات» إنما يعكس، فحسب، وجهة نظر تلك القوى والسلطات بحسب الأزمنة والأمكنة، قبل أن يستتب الأمر أخيرا للتاريخ وفق رؤية المذهب السني عموما والمالكي خصوصا..

إذا نحن اعتبرنا كل هذه المعطيات وغيرها كثير، فإننا لا نملك إلا أن نؤكد حاجتنا الماسة إلى السؤال والبحث في تاريخ شعبنا بإعمال الفكر المنهجي بعيدا عن المعيقات الذاتية التي حالت وتحول دون تدوين علمي لهذا التاريخ..

نحن لا نملك إلا التأكيد على ضرورة إعادة قراءته وتفسيره علميا لأجل دحض الترهات الإيديولوجية وكشف الأساطير والبطولات الوهمية وفضحها.

ليس تاريخنا القديم إرثا انتهى أو أحداث مرحلة حساسة وحرجة ينبغي تجاوزها، بل هو تاريخ مرحلة ستظل حاضرة بقوة في تفكيرنا المباشر وفي لا وعينا الجمعي، فنحن أمة تاريخية بما في الكلمة من معنى.

علينا أن نقرأ ماضينا للمعرفة والاعتبار من أجل الحاضر والمستقبل؛ فواقعنا اليوم يفرض حاجة حقيقية لمقاربة أمسنا من أجل غدنا، لفهمه واستيعابه ومن ثم توظيفه للمساهمة إيجابيا في مصالحة الذات المغربية اليوم مع نفسها.

علينا تجاوز الرؤى اللاعلمية التي أطرت ووجهت تاريخنا منذ الزمن الأموي، وحتى اليوم، فهو تاريخ متهم، في كل حال، ليس بسبب شح الأخبار وقلة المصادر فحسب، بل أساسا بسبب التوظيف الإيديولوجي للدين وبسبب تحيز المؤرخين للأفكار ذات المنحى الشعوبي..

علينا، إذن، أو لنقل على وجه الدقة، على المؤرخ أن ينتصر للعلم؛ أن يفكر بموضوعية وبحرية إذ يسائل الوثائق ويقرأ الأحداث ويبحث في معطى التفسيرات والتأويلات القديمة بوعي جديد وفكر نقدي مختلف. فكر البحث الدقيق والرصين.

ولأن البحث العلمي هو اختيار الأستاذ الجامعي المعروف صدقي على أزايكو في تناوله هنا لـ«البدايات الأولى لدخول بلاد الأمازيغ في المجال الإسلامي»، لم نتردد في اختياره. نحن هيئة تحرير هذا المنبر. كأول إصدار من نوعه نستهل به توجهنا الثقافي الإعلامي الجديد.

البحث القيم الذي نقدم له الآن إذن، إذ يخوض في الممنوع والممتنع، فريد من نوعه، قيم في موضوعه، جريء في أسئلته، موضوعي في تناوله واستثنائي من حيث شخصية كاتبه: مثقف أدى السجن ضريبة للتفكير العلمي في التاريخ في زمن يحظر أن تسأل فيه التاريخ بل يلقن فقط برواية الحاكمين.

بحث علمي يقتحم منطقة معتمة من «فتنتنا» الغابرة ليطرح أسئلة للإضاءة أكثر مما يقدم أحكاما جاهزة.

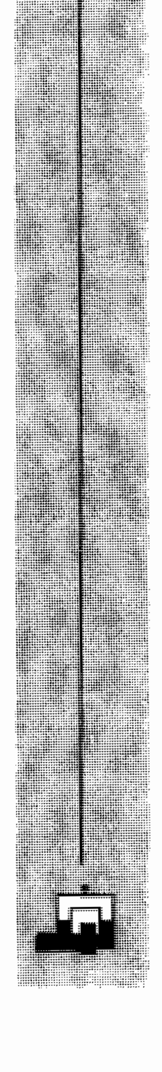
يشرفنا أن نقدمه لقرائنا.

الهوية ⵜⴰⵎⴰⵜⵍⴰ

محتويات الكتاب

القسم الأول

القسم الثاني



البدايات الأولى لدخول
بلاد الأمازيغ
في المجال الاسلامي

***

يمثل هذا العرض جزء من درس ألقي على طلبة السنة الثانية، تاريخ بكلية الآداب بالرباط خلال السنتين الجامعيتين [illegible] في إطار مادة الغرب الاسلامي.

وقد هيئ أساسا وعن قصد مني ليكون بحثا في الموضوع، لا مجرد درس.

وقد سمحت لنفسي بنشره كما هو لأنني أعتقد أنه يتضمن جوانب يمكن أن تثير اهتمام الباحثين، وربما عملوا على تعميق النظر فيها بغية توسيع معارفنا عن هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا التي لا تزال، رغم كل شيء، محاطة بكثير من الغموض المحير.

ص.ع.ا

لقد أحدث دخول الإسلام إلى بلاد شمال أفريقية الأمازيغية تحولا كبيرا في حياة الأمازيغ، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات. وهذا شيء طبيعي لأن الإسلام منهاج متكامل للحياة، ونظرة شاملة لما ينبغي أن يكون عليه سلوك الأفراد والجماعات، وعلاقاتهم فيما بينهم كمسلمين وفي ما بينهم وبين الآخرين من غير المسلمين، وفيما بينهم وبين الغيب بصفة عامة.

وبقطع النظر عن ملابسات العمليات الأولى للفتح التي سنعود إليها فيما بعد، سنحاول أن نلقي نظرة سريعة عن أهم نتائج دخول الإسلام إلى شمال أفريقية الأمازيغية.

1. بداية الفتوحات الإسلامية.

بعد أن استقر أمر الإسلام في شبه الجزيرة العربية بدأ الخلفاء الراشدون يتوقون إلى نشر الدعوة في فلسطين والشام والعراق. ومعلوم أن هذه المناطق كانت خاضعة لنفوذ كل من الآمبراطورية البيزنطية من جهة والامبراطورية الساسانية الفارسية من جهة أخرى. هاتان الامبراطوريتان كونتا ممالك عربية تابعة لهما على الحدود تحول دون تسرب القبائل العربية البدوية إلى الأراضي الخاضعة لهما، وأشهر هذه الممالك مملكة المناذرة اللخميين، في الحيرة ومملكة الغسانيين في بادية الشام.[1]

إن أهم ما يميز الفتوحات الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط هو على ما يبدو السهولة المدهشة التي تمت بها، والسرعة النسبية التي أنجزت بها، وبالفعل ففي أقل من ربع قرن خلال خلافة أبي بكر وعمر وعثمان (632 / 656م) تمكنت الجيوش الإسلامية من إخضاع كل بلاد الشام وما بين النهرين ومعظم بلاد فارس ومصر وبرقة، كما قامت بغزوات في طرابلس الغرب وافريقية انطلاقا من مصر على يد عبد الله بن سعد عام 27 هـ647م.

وقد فسر المؤرخون هذه السرعة وتلك السهولة بملاءمة الظروف العامة التي تتلخص على وجه الخصوص في ضعف الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية لأسباب داخلية وخارجية، وفي تذمر سكان المناطق الخاضعة

لهما من الظلم والتعسف والنهب الجبائي والقمع المذهبي من قبل إدارتيهما.[2]

إن أهمية ما لاحظناه بالنسبة للفتوحات الإسلامية في الشرق الأوسط تبرز أكثر إذا قورنت بالفتوحات الإسلامية في شمال أفريقيا، التي اتسمت بعنف المواجهة بين الأطراف المتصارعة، وطول المدة الزمنية التي استغرقتها (حوالي 68 سنة)، رغم أن أهم وقائعها تمت في عهد الدولة الأموية وهي في أعلى درجات قوتها.

وسنعود فيما بعد إلى ذكر الأسباب المكنة التي كانت وراء خلق هذه الوضعية. أما ما يهمنا الآن بخصوص فتح شمال أفريقيا الأمازيغية فهو النتائج المختلفة التي تمخضت عن الفتوحات وعن انتشار الديانة الإسلامية في البقاع الأمازيغية فيما بعد.

.2 . آثار حرب الفتوح.

إن التدخل العسكري الإسلامي في شمال أفريقيا مر بمرحلتين أساسيتين هما:

ا. مرحلة الغزوات المحدودة، والتي بدأت مباشرة بعد فتح البلاد المصرية ووصلت فيها الجيوش الإسلامية إلى منطقة طرابلس وامتدت على فترة زمنية تناهز الثلاثين سنة(641/670 م.50/21 هـ) .

وأهمية هذه المرحلة ترجع إلى كونها أعطت الفرصة الكافية للقيادة الإسلامية للتعرف على أحوال المنطقة السياسية والعسكرية، كما ترجع كذلك إلى كونها أعطت الوقت الكافي لسكان برقة وطرابلس للتعرف على الإسلام والانخراط فيه، الشيء الذي جعلهم يشاركون مشاركة فعالة في عمليات الفتح التي تمت فيما بعد.[3]

ب. مرحلة الفتوحات المنظمة. وتبتدئ بعد تولية عقبة بن نافع على افريقية وبناء مدينة القيروان (50 هـ 670 م) لتنتهي بعد فتح الأندلس وانتهاء ولاية موسى بن نصير عام 96 هـ.715 م.. وهذه المرحلة تتميز أكثر من سابقتها بكونها شهدت معارك عنيفة بين الطرفين مما جعلها تؤثر تأثيرا أكبر على الأوضاع العامة في المنطقة كلها.

وكيفما كان الأمر فإن التدخل العسكري في المنطقة أحدث اضطرابا في التوازن الجغرافي للسكان. حيث أدى إلى وقوع انتقالات بشرية جماعية

سواء مع الجيش الإسلامي أو ضده أو هروبا منه، فوقع تدافع السكان بعضهم لبعض في اتجاه الغرب أو نحو الجنوب.[4]

كما أحدث اضطرابا في التوازن السوسيولوجي أو الاجتماعي حيث أدى إلى انهيار بعض التحالفات القديمة وظهور تحالفات جديدة بين مختلف المجموعات السكانية، كما أدى إلى بروز العنصر الزناتي على مستوى الأحداث سواء مع الفاتحين أو ضدهم.[5]

وقد أحدث كذلك اضطرابات اقتصادية ناتجة عن حالة الحرب الطويلة حيث انسدت الطرق التجارية النشيطة قبل ذلك، نظرا لانعدام الأمن وقلة الاستقرار، كما انهارت المزارع الكبرى التي أنشئت في العهد الروماني أو بالأحرى انهار ما تبقى منها بعد قرون من الاضطرابات المستمرة خصوصا في العهدين الوندالي والبيزنطي، ومعلوم أن العمل الزراعي لا يمكن ازدهاره إلا في ظروف مثلى من الاستقرار والأمن.[6]

ومن عوامل الاضطرابات الاقتصادية كذلك مبالغة الولاة والعمال في جمع الغنائم والسبايا وإرسالها إلى الشرق إرضاء لولاة الأمر في العاصمة. وقد أوردت جل المصادر المعروفة أرقاما خيالية تظهر إلى حد ما مدى ما بلغه الاستنزاف المادي والبشري خلال الفترة التي نتحدث عنها.[7]

ومن أهم نتائج التدخل العسكري كذلك فتح الأندلس ودخول الإسلام إليها، مما جعل شبه جزيرة إيبيريا ترتبط بالمغرب عدة قرون من الزمن. غير أن أهم نتيجة مباشرة لهذا الفتح هو خلق متنفس عسكري لأعداد كبيرة من الجنود الأمازيغ المسلمين خارج حدود بلادهم، وربما كان هذا من الأسباب التي جعلت المغرب يشهد فترة هدوء نسبي على المستوى الحربي دامت إلى ما بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز (101هـ 720م) وليس من المستبعد كذلك أن يكون فتح لأندلس على أيديهم بإشراف قيادة منهم[8] قد جعلهم يشعرون بقوتهم وبقدرتهم على التحرك المستقل داخل الإطار الجديد الذي أدخلهم فيه الإسلام. وإذا كان فتح الأندلس أول عمل إيجابي قام به الأمازيغيون المسلمون خارج حدود بلادهم لصالح الإسلام والدولة الإسلامية فقد تبين فيما بعد أنه كان كذلك حدا فاصلا بين فترتين متباينتين من تاريخ الإسلام في شمال أفريقا الأمازيغية. الأولى منهما تتميز بتغلب الجانب العربي الإسلامي رغم المقاومة المنظمة من قبل الأمازيغ، أما الثانية فقد عرفت انتفاضة كبيرة ضد ممثلي السلطات

المركزية. وفي إطار الإسلام.

وكان الخوارج هم أبطال هذه الحركة السياسية الدينية المشوبة بنوع من الشعور القومي لا يبرز إلا في أدب الخوارج المغاربة.[9]

إن آثار وملابسات الفتوحات الإسلامية في شمال أفريقيا الأمازيغية وكذا ماجرياتها لا يمكن تفهم حقيقتها إلا بربطها بالظروف العامة التي كانت سائدة إبان وقوعها: سواء على المستوى المحلي (افريقيا الشمالية) أو على المستوى المركزي (المدينة أو دمشق.).

أما على المستوى المحلي فيظهر أنها جاءت في فترة تميزت بانهيار الوجود البيزنطي في افريقيا. فهي إذن فترة مناسبة من هذا الجانب: وكأن الاستعلامات العربية الإسلامية لم تكن تهتم إلا بالتعرف على الأوضاع السياسية والعسكرية للمستعمرات البيزنطية. ولكنها غير مناسبة من جانب آخر، لأنها جاءت في وقت تكونت فيه تجمعات أمازيغية قوية كالتي تكونت في أواخر القرن السادس الميلادي وحاصرت المستعمرات البيزنطية من الجنوب والجنوب الشرقي بصفة خاصة.[10]

وكان من أهم هذه التجمعات تلك التي تزعمها كوسيلا أمير أوربة البرانس، والتي قادتها أميرة الأوراس داهيا (داميا أو داحيا) من جراوة الزناتيين.[11]

غير أنه يبدو أن ما جعل اللقاء بين المسلمين والأمازيغ لقاء متأزما وعنيفا هو سلوك أمراء الجيش وعمال بني أمية في شمال أفريقيا. وبالفعل فإن أهم ما تم من فتوحات في شمال أفريقيا كان في عهد الدولة الأموية المعروفة بتعصبها العرقي وقلة اهتمامها بتطبيق المبادئ الإسلامية سواء في الحرب أو في السلم.[12]

فإذا كان بعض الإخباريين يرددون الكلام عن ارتداد الأمازيغ[13] فإن هذا الارتداد لم يثبت أنه كان ارتدادا دينيا بالمعنى الصحيح لأن الظروف التي أسلم فيها من أسلم منهم آنذاك لم تكن تسمح لهم باعتناق الاسلام عن طواعية واقتناع. إذ كان قبولهم للاسلام نتيجة لتحالف سياسي أو قبلي أكثر من أي شيء آخر.[14]

يمكن القول إذن بأن الردة المقصودة هي الردة السياسية وهذه كانت واقعا ثابتا.[15] وكان المسؤول عنها في الدرجة الأولى هو تعسف بني أمية.

3 . آثار انتشار الإسلام في البلاد الأمازيغية.

3. 1 . مسألة انتشار الإسلام.

إن أهم نتيجة تمخضت عن حروب الفتوح هي، على الإطلاق، انتشار الإسلام في الربوع الأمازيغية بشمال أفريقيا.

وإذا كانت المصادر المعروفة لا تعطي المعلومات الكافية عن مراحل انتشار الإسلام فيها، والكيفية التي تمكن بها من أن يصبح دين الأغلبية الساحقة من سكانها فإن كل الدلائل تشير إلى أن حرب الفتوح وفترة ولاة بني أمية التي تلتها يقتصر دورهما بالضرورة على إشعار السكان بوجود الدين الجديد وإعلان جزء منهم الانتماء إليه بدافع أو بآخر،[16] وذلك لأن الفترة الزمنية قصيرة ومضطربة، ولأن الاتصال المباشر بين السكان والفاتحين لم يشمل إلا مناطق قليلة من البلاد. وهي في الغالب الواقعة على الطرق الكبيرة، ولأن جل الفاتحين لم يستقروا في البلاد المفتوحة بعد ذلك إذا استثنينا بعض المدن في افريقية (تونس) كالقيروان مثلا.

أضف إلى ذلك كله صعوبة تغيير المعتقدات الدينية والعادات والتقاليد.. لدى الشعوب، خصوصا إذا كان التغيير المطلوب تغييرا جذريا يمس كل مرافق حياة الناس.

فانتشار الاسلام وتمكنه في شمال أفريقيا الأمازيغية لم يتم إذن بين عشية وضحاها، بل تم ببطء كبير عبر مراحل متعددة امتدت على عدة قرون.[17]

وقد لعب الراسخون في الدين من الأمازيغيين الأوائل الدور الأساسي في ترسيخ الإسلام في المناطق التي عرفته منذ البداية كأئمة الخوارج الإباضية المعروفين بـ« حملة العلم »،[18] وفي جعله يتغلغل في مجموع الأصقاع الداخلية من سهول وجبال وصحاري...

3 . 2 . دخول المذاهب الإسلامية.

كان من الطبيعي أن تتسرب المذاهب الإسلامية إلى بلاد الأمازيغ. ولكن

الشيء الملفت للنظر هو هذا التبني السريع من قبل الأمازيغيين المسلمين للمذاهب الإسلامية المعارضة. وتعتبر شمال افريقيا من المناطق الاسلامية النادرة التي تمكنت فيها هذه المذاهب من تكوين كيانات سياسية في وقت مبكر من تاريخ الاسلام.

فإذا كان الإسلام السني هو السائد منذ البداية فإن المذهب الخارجي تمكن منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة من تكوين حركة سياسية قوية ساهمت بحظ وافر في القضاء. بقوة السلاح. على النفوذ الأموي في قسم كبير من المناطق التي كان يشملها. كما اضطرت االعباسيين إلى الاكتفاء بإفريقية التي أصبحت فيما بعد. في عهد بني الأغلب إمارة شبه مستقلة لا تربطها بالدولة المركزية إلا التبعية الاسمية.(184 هـ 800 م).[19]

وهكذا ظهرت الثورة الخارجية الأمازيغية بزعامة ميسرة المطغري (أو المدغري) الصفري ثم خالد بن حميد الزناتي (حوالي 122 هـ 740 م) وكأنها استمرار موضوعي للمقاومة التي واجهت جيوش الفاتحين الأوائل. ولكن هذه تعتمد مرجعا إيديولوجيا قويا هو المذهب الخارجي الصفري والإباضي.[20] الشيء الذي جعلها أول ثورة أمازيغية إسلامية تصطبغ بصبغة قومية ظاهرة. لأن « ثوراتهم كانت ضد الحكم العربي » كما كتب محمود إسماعيل الذي أضاف قائلا: « كانت ثورات الخوارج في المغرب تمثل في بعدها الاجتماعي صراعا بين العرب والبربر بسبب سياسة بني أمية في التعصب للعنصر العربي، ولهذا حرص ثوار الخوارج على « الفتك بأمر العرب » عموما. والقرشيين منهم بوجه خاص.[21]

وبجانب الخوارج الإباضية والصفرية الذين ظهر نشاطهم السياسي في افريقية والمغرب منذ أوائل القرن الثاني للهجرة (النصف الأول من القرن الثامن الميلادي) هناك المذهب المالكي الذي تركز بصفة خاصة في القيروان منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وقد دخل فقهاؤه في صراع طويل مع فقهاء المذهب الحنفي والخوارج. ثم هناك المذهب الشيعي الذي بلغ ذروته بقيام الدولة العبيدية أو الفاطمية عام297 هـ 910م..

إذا كان انتشار أفكار الخوارج في شمال أفريقيا الأمازيغية قد تم في وقت مبكر.[22] وتمخضت عن ذلك نتائج سياسية ودينية واجتماعية ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى السكان. فإن الحركة الخارجية لم تتمكن من الصمود الطويل أمام المعارضة المستميتة لفقهاء السنة وأمام الضغط

العسكري لمختلف السلطات السياسية التي تعاضدهم،[23] وأمام هجوم الفاطميين الشرس عليهم..[24]

وإذا كان المذهب الخارجي والمذهب الشيعي الفاطمي قد ساهما بحظ وافر في إثارة الأمازيغ ضد السلطة الأموية والعباسية في شمال أفريقيا الأمازيغية فإن المذهب المالكي تمكن أخيرا من فرض سيادته على البلاد،[25] خصوصا بعد انتقال مراكز الخلافة الفاطمية إلى مصر عام 973م وإعلان قيام الدولة الزيرية بإفريقية في عهد المعز بن بادس عام 441 هـ1049م.[26]

3 . 3 . ظهور ممالك وطنية إسلامية.

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الإسلام دين ودولة؛ أي أن النظام السياسي للجماعة الإسلامية يخضع لما تمليه القواعد الدينية في ميادين المعاملات والعلاقات العامة، وفي مجال تفويض السلطة وحدود التصرف فيها.. حتى إن الجماعة الإسلامية لا تكاد تتصور نفسها بدون انتمائها إلى نظام قائم، وانعدامه يعتبر في نظرها فراغا مهولا وفتنة تجر المهالك.[27]

ولهذا يلاحظ أنه بمجرد انتهاء فترة الفتوحات وسقوط سلطة بني أمية في جزء كبير من شمال افريقيا الأمازيغية بسبب ثورات الخوارج، يلاحظ بداية تأسيس ممالك مغربية إسلامية في كل من سجلماسة وتاهرت وفاس وتامسنا، وذلك خلال القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) وقد شهدت القرون الثلاثة الموالية نمو هذه الظاهرة بظهور الدولة الفاطمية ثم الزيرية بإفريقية، والمغراوية بفاس والحمادية بالمغرب الأوسط (قلعة بني حماد) ثم المرابطين بمراكش.

بذلك أصبح الدين الإسلامي هو الأساس الإيديولوجي المعتمد في تكوين دول وإمارات وطنية، وغدا المنبه الرئيسي لوعي وطني سياسي مع شعور بالانتماء الروحي إلى الأمة الإسلامية بأكملها.

وهكذا خرج الأمازيغ من أزمة الفراغ الإيديولوجي الذي عانوا منه مدة طويلة وحال بينهم وبين بناء كيانات سياسية تعتمد تركيز السلطة أساسا لقيامها وشرطا لبقائها.[28]

هناك ظاهرة أخرى مرتبطة بالتي تحدثنا عنها هي ازدياد ملحوظ في

عدد المدن المؤسسة خلال الفترة الممتدة من تاريخ بناء القيروان إلى تاريخ بناء مدينة مراكش. أي من النصف الثاني من القرن السابع الميلادي إلى مطلع النصف الثاني من القرن الحادي عشر: ازدياد في عدد المدن وازدياد كذلك في أهميتها كمراكز للسلطة الحاكمة ومراكز لمختلف الأنشطة التجارية والصناعية والأنشطة التعليمية والعلمية والثقافية بصفة عامة.[29]

وبازدهار هذه المراكز بدأ استحواذ سكان الحواضر على التجارة والمال. وعلى القرار الديني والسياسي .. وفي نفس الوقت بدأ سكان البوادي يتراجعون شيئا فشيئا إلى مناطق الظلال. ولا يظهرون بقوة إلا في حالة وجود ضعف في السلطة أو في حالة وجود فراغ سياسي.[30]

غير أن أهمية التجارة الصحراوية وازدهارها آنذاك. أي بعد نهاية حرب الفتوح وانتشار الخوارج وممالكهم على جل مناطق الواحات شرق الأطلس وجنوبه من سجلماسة بتافيلالت إلى نفوسة بطرابلس مرورا بتاهرت وبلاد المزاب ونفزاوة أو ما يسمى بلاد الجريد التونسي قد مكن (ازدهار هذه التجارة) «قبائل المناطق ما قبل الصحراوية والصحراوية من زناتة وصنهاجة من أن تلعب دورا تاريخيا هاما على المستوى التجاري والديني والسياسي[31] وبذلك اندمجت الصحراء بشكل فعال في الصيرورة التاريخية لمجموع المغرب الشمالي. وكان تأسيس الدولة المرابطية من أبرز ما يدل على هذا الاندماج.

3 ـ 4. اندماج سكان الصحراء الكبرى في حركة الشمال.

إن المتتبع لتاريخ الغرب الإسلامي من بداية الفتوحات في العشرينات من القرن الأول للهجرة (أواخر النصف الأول من القرن السابع الميلادي) إلى منتصف القرن الخامس الهجري (منتصف القرن الحادي عشر الميلادي) يلاحظ أن المجال الجغرافي الذي دارت فيه الأحداث والوقائع كان هو المحور بين البحر الأبيض المتوسط شمالا والممر الممتد من شمال خليج قابس بتونس إلى تلمسان. ومن هذه إلى حوض سبو مرورا بمضيق تازا جنوبا.[32]

هذا الممر يقع الجزء الأول منه بصفة عامة بين الأطلس التلي شمالا والأطلس الصحراوي جنوبا. وينطبق تقريبا على منطقة توزيع المياه بين

المجاري المائية المتجهة نحو الشمال والتي تنحو نحو الجنوب. ويضم جزءا لابأس به من منطقة السهوب ما قبل مدارية.

وأخيرا لابد من الإشارة إلى أنه يحتل في قسمه الشرقي الممتد غربا حتى منطقة الهدنة، المنطقة الواقعة بين الليمس الروماني جنوبا والليمس البيزنطي شمالا. أما في قسمه الغربي فيلاحظ أنه يحاذي الليمس الروماني إلى ما وراء تلمسان.

ومن الناحية البشرية يلاحظ أن القبائل الأمازيغية الشرقية من لواتة وهوارة وزناتة وجراوة ومطماطة وبني يفرن ومطغرة.. منتشرة في أكثر من مكان على طول الممر المذكور، ومعلوم أن هذه القبائل لعبت دورا كبيرا في الفتوح بجانب الجيوش العربية الإسلامية الآتية من الشرق.

هذا الممر يعتبر إذن سواء من الناحية الطبيعية أو من الناحية البشرية أو من الناحية التاريخية (الحد الجنوبي لمنطقة النفوذ الروماني ثم البيزنطي في نوميديا بصفة خاصة) الطريق الملائم لتغلغل جيوش المسلمين في اتجاه الغرب. ويبدو أن القبائل الأمازيغية الشرقية عبدته قبل مجيء الإسلام بكثير.[33]

إن جل الأحداث التي واكبت عمليات الفتوح كان الممر المذكور هو الحد الجنوبي للمجال الجغرافي الذي دارت فيه. ويمكن أن نستثني مع ذلك ما حدث من تغلغل عقبة بن نافع في بعض واحات برقة وطرابلس في أول أمره بليبيا عام 46هـ حسب ما ورد عند ابن عبد الحكم.[34] غير أن هذا الاتجاه لم يستمر، ولم يدم مدة طويلة إذ سرعان ما اتخذ وجهة الشمال الشرقي، أي نحو مدن افريقية البيزنطية.

أما ما قيل من أن عقبة بن نافع وصل بجيوشه إلى مناطق سوس الأقصى فيبدو أنه غير صحيح، نظرا لما يعتري ما قيل في الموضوع من اضطراب وتناقض، جعلا المؤرخين المعاصرين يشكون في ما يتعلق بذلك من أخبار.[35]

يستنتج مما سبق أن مناطق الواحات الممتدة من طرابلس إلى سجلماسة كانت بالنسبة إلى أحداث الفتوحات مناطق هامشية ولذلك كانت ملجأ لكثير من المجموعات البشرية الهاربة من مسالك الجيوش. كما كانت موطنا للمعارضة السياسية والمذهبية فيما بعد.[36] وقد أشرنا سابقا

إلى أن هذه المناطق هي التي كانت موطن الخوارج. وهؤلاء هم الذين عملوا على ربط سكان الصحراء بالشمال أول الأمر عن طريق التجارة ونشر الدعوة. بل ساهموا، حسب بعض المصادر وخاصة منها المصادر الخارجية في إيصال الإسلام إلى منطقة الساحل جنوب الصحراء الكبرى.[37]

وقد ساعد ازدهار مناطق الواحات المذكورة من الناحية الفلاحية والصناعية والتعدين على ازدهار التجارة وتنشيط المبادلات بين الشمال والجنوب. وفي هذا الموضوع كتب محمود اسماعيل ما يلي: «أما الدور البارز الذي لعبه الخوارج في حياة المغرب الاقتصادية فكان في مجال التجارة. إذ قامت الدولتان المدرارية والرستمية بدور الوسيط في التجارة عبر الصحراء شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. فلم تحل العلاقات السياسية غير الودية بين دولتي الخوارج وبين أعدائهم السياسيين والمذهبيين دون استمرار الصلات التجارية مع سائر دول المغرب والأندلس فضلا عن المشرق الإسلامي وبلاد السودان. ».[38] وقال كذلك: « أما عن تجارة الخوارج مع بلاد السودان فقد شكلت حجر الزاوية في نشاطهم الاقتصادي .[39]

غير أن قيام الدولة الفاطمية وتسلطها على الدول الخارجية الرستمية والمدرارية أدى ولاشك إلى انهيار هذا البناء الاقتصادي المزدهر أو إلى تقهقره على أقل تقدير. وبذلك تقلص نفوذ الخوارج في المناطق الصحراوية. وربما كان هذا هو العامل المشجع لفقهاء المالكية على نشر مذهبهم في الصحراء الغربية مما أدى إلى قيام دولة المرابطين بزعامة عبد الله بن ياسين الجزولي في ربوع الصحراء والتي تمكنت فيما بعد من الاستيلاء على المغرب كله. وقضت نهائيا على آثار المذاهب الأخرى وفرضت المذهب المالكي في مجموع المناطق التي كانت خاضعة لها.[40]

3 . 5 . بداية انتشار لغة جديدة هي العربية.

من النتائج البارزة لانتشار الاسلام في شمال أفريقيا تبني جزء كبير من الأمازيغيين للغة القرآن. وتخليهم جزئيا مع مرور الحقب عن لغتهم الأمازيغية. وهذا دليل قاطع على حسن إسلامهم وعمق إيمانهم بمبادئ الإسلام .

ويلاحظ أن ذلك كله تم في فترات لم تكن فيها للعرب أي سلطة سياسية

فعلية. ولم يكن لهم في شمال أفريقيا إلا وجود عددي ضئيل بالنسبة إلى السكان الأصليين الذين ينتشرون على رقعة جغرافية واسعة جدا. ولكن عملية تعريب قسم من الأمازيغيين لم تكن نتيجة لعمليات الفتح بقدرما كانت ثمرة مجهودات الأمازيغيين أنفسهم والتي امتدت على قرون طويلة. وذلك عن طريق التعليم المزدوج اللغة بصفة خاصة.[41]

ولكي نكون نظرة عامة عن هذه النقطة الهامة والمعقدة نجمل الكلام عنها في النقط التالية:

. ينبغي أن نشير أولا إلى أن اللغة الأمازيغية بمختلف لهجاتها كانت في الفترة التي تعنينا هنا هي لغة الأغلبية الساحقة من سكان شمال أفريقيا، وبالتالي فهي الأولى من حيث عدد متكلميها ومن حيث الأصالة التاريخية.

وإذا كانت القرطاجية قد اندثرت قبل الفتح الإسلامي فإن اللاتينية بقيت على ما يبدو لغة أقلية من السكان في بعض الأماكن مدة غير محددة بعد دخول الإسلام إلى الشمال الأفريقي.[42]

توجد قرائن كثيرة تدل على أن نسبة المتكلمين بالعربية في القرون الخمسة الأولى من عهد الإسلام بالمغرب كانت قليلة.[43] ومن بين أسباب ذلك ارتباط تعلمها بوجود مؤسسات مختصة كالمدارس وحلقات التدريس في المساجد، وبوجود معلمين وأساتذة وموارد مادية...

ومعلوم أن مثل هذه المؤسسات كانت آنذاك قليلة. ويتركز الكثير منها في المدن الكبيرة ، وبالتالي فإن عملية التعريب بدأت في المدن أولا ثم بدأت تعم شيئا فشيئا ضواحيها القريبة ثم المناطق المجاورة، وهكذا ...

ويرتبط اتساع مجال تأثيرها على هذا المستوى، بمدى أهميتها كمركز لمختلف الأنشطة الاقتصادية منها والدينية والثقافية والسياسية، وهذه الأهمية لا تتحقق عادة إلا في العواصم وفي عهد ازدهار الدولة فقط.

إن الدوافع التي كانت وراء تعلم العربية وتعليمها كانت ولا شك متنوعة. ولكن يبدو أن أهمها تكمن في كون العربية لغة دين ودولة. وهذا شيء طبيعي لأن الإسلام كما هو معلوم دين ودولة. فإذا كان تعلمها يمكن من معرفة النصوص الدينية من قرآن وحديث.. مما يساعد على تصحيح الممارسات الدينية وعلي خلق نوع من الشعور بالارتياح النفسي فإنه يؤدي

كذلك إلى رفع المرتبة المجتمعية للأفراد. إذ يمكنهم ذلك من أن يحتلوا مناصب هامة في الدولة: كالوزارة والقضاء والإفتاء والتدريس ووظائف أخرى... بالإضافة إلي ما يتمتعون به داخل المجتمع من امتيازات أكسبتهم إياها مكانتهم الدينية والوظيفية.[44] فالاستفادة المعنوية والمادية كانت أهم حافز كان وراء خلق نخبة متعلمة تمكنت بفضل مكانتها في أجهزة الدولة والمجتمع من أن تحتل مراكز القرار السياسي والديني. وساهمت بحظ وافر في تعريب مؤسسات الدين والدولة. مما ساعد على تعدد مؤسسات التعليم وتوسيع نطاق المستفيدين منها.[45]

. هناك عامل آخر ساعد على انتشار اللغة العربية وتقلص مجال اللغة الأمازيغية في مجموع بلاد شمال أفريقيا الأمازيغية هو عامل الكتابة.

لقد أشرنا سابقا إلى أن اللغة العربية استفادت في انتشارها من دعم الدين والدولة. ونضيف الآن فنقول بأن هذا الدعم بالذات هو الذي ساعدها على أن تكون منذ البداية لغة مكتوبة. وكونها لغة مكتوبة مكنها من تكوين رصيد ثقافي مكتوب يتراكم مع مرور الزمن ليصبح فيما بعد المرجع الوحيد لكل ما يتعلق بشؤون الغرب الإسلامي.[46] فالكتابة إذن أعطت اللغة العربية سلطة أخرى كبيرة وساعدتها على الانتقال إلى مراكز التعليم في البوادي والجبال والصحارى.

أمام هذه الظروف المساعدة بالنسبة إلى العربية لم تستفد الأمازيغية إلا من كونها لغة جماهير الفلاحين. أي لغة الأغلبية الساحقة من السكان. وهو ما ساعدها على البقاء حية قرونا طويلة.[47]

هناك عامل آخر ساعد على انتشار العربية البدوية أو ما يسمى اليوم العامية أو الدارجة في المناطق القروية البعيدة عن المراكز الحضرية الكبيرة هو انتشار القبائل الأمازيغية البترية أو الزناتية التي كانت منتشرة في نواحي برقة وطرابلس في اتجاه الغرب واستقرت بالسهول الأطلسية بالمغرب (زناتة. مديونة. بنو يفرن. مكناسة ..).

وبالفعل فإن القبائل المذكورة كانت أول من اتصل بالعرب الواردين من مصر. وشاركت منهم أعداد كثيرة في عمليات الفتوحات سواء في المغرب أو في الأندلس. بل منهم من زعم الانتماء إلى الأصل العربي منذ عهد حسان بن النعمان الذي اعترف لهم بذلك. وكتبوا عقد الأخوة بينهم: فلما وقع هذا الاشهاد أسلمت قبائل زناتة كلها في ذلك اليوم. وذلك سنة ثمانين من

الهجرة...»[48]

وكيفما كان الأمر فإننا نلاحظ أن القبائل الأمازيغية الشرقية هي التي تعربت أكثر، وقبل غيرها. ويبدو مع ذلك، أن تعربها الحقيقي لم يبدأ إلا بعد اختلاطها بقبائل بني هلال وسليم ثم قبائل معقل. وهي كلها قبائل عربية بدوية، وذلك ابتداء من منتصف القرن الحادي عشر الميلادي..

فالبدو الرحل من الأمازيغيين والعرب هم الذين ساهموا بحظ وافر في تعريب قسم كبير من سكان السهول والمناطق الصحراوية التي تغلبوا عليها في فترة من الفترات التاريخية، وقد أدى هذا التغلب إلى اندراج المجموعات الأمازيغية المغلوبة تحت أسماء المجموعات العربية الغالبة وفقدت أسماءها الأصلية.[49]

وبالإضافة إلى ما ذكر تجدر الإشارة إلى أن المخزن المغربي ساعد كذلك وفي مختلف العصور وبطريقة غير مباشرة على تعريب المناطق السهلية التي كانت خاضعة لسلطته الفعلية، بينما بقيت الجبال وسفوحها القريبة والبعيدة أحيانا معقلا للغة الأمازيغية إلى اليوم.[50]

4 . العلاقة بين المغرب الإسلامي والمشرق.

إن تحديد طبيعة العلاقة التاريخية بين المغرب الإسلامي والمشرق [51] يطرح أمام الباحث مشاكل ليس من السهل التطرق إليها وتوضيحها بالموضوعية العلمية المطلوبة، وذلك لأسباب نذكر منها ما يلي:

ا. لأن أساس هذه العلاقة وسببها المبدئي هو الإسلام. وهذا المعطى يجعل كل حديث موضوعي عنها صعبا ومثيرا في آن واحد. فالمسألة إذن دقيقة ومتعددة الأبعاد ومحفوفة بالحساسيات الدينية والسياسية. سواء في الماضي أو الحاضر. لذلك نجد أن تعامل الأخباريين والمؤرخين مع هذا الموضوع تأثر كثيرا بما يمكن أن نسميه بالرقابة الإيديولوجية الذاتية أو المجتمعية.[52]

ب. لأن المصادر الأساسية، إن لم نقل، الوحيدة، التي تتضمن أخبارا عن تاريخ هذه العلاقة وكل الأحداث التي واكبتها هي مصادر عربية إسلامية كتبها المشارقة أو المغاربة أو الأندلسيون. ومن مميزاتها:

١. كونها تنظر إلى الأحداث من منظور إسلامي محض. الشيء الذي

جعلها تهتم بجوانب دون أخرى.

٢ . كون جل ما وصلنا منها من وضع أشخاص ينتمون إلى التيار السني. وهذا الانتماء لابد أن يكون له أثر ما على ما تتضمن كتبهم من أخبار سواء من حيث الاختيار (الخبر الذي يستحق التدوين والهدف من تدوينه : ديني أو سياسي...) أو من حيث التأويل... وقد يكون التأثير بأي نوع آخر من التدخل في الخبر كتضخيمه أو اختزاله..

٣ . كونها متأخرة زمنيا عن الأحداث التي تحكيها بالإضافة إلى أن جلها كتب بعيدا عن أماكن الأحداث والوقائع. كما أن مادتها الأولى كانت هي الرواية الشفوية المتداولة عبر عدة أجيال. وهذا النوع من المصادر يتعرض أكثر من غيره كما هو معلوم لتغييرات كثيرة سواء من قبل الرواة أو من قبل المسجلين لها كتابة.[53]

جـ. لأن تراكم العوامل التاريخية في شمال أفريقيا. والتي أشرنا إلى أهمها فيما سبق. وضغط التطورات الظرفية التاريخية المعاصرة بصفة خاصة. أديا إلى ظهور إرادة سياسية ترمي الى اعطاء العلاقة بين المغرب والمشرق بعدا آخر جديدا يعتمد أساسا على الايديولوجية القومية (العربية). وهذا أضاف عقبة جديدة تحول دون التطرق الموضوعي لقضية العلاقة التاريخية بين المغرب والمشرق.[54]

إن وجود العقبات المذكورة سيجعلنا مضطرين إلى الاكتفاء هنا بإبداء بعض الملاحظات الممكنة حول هذا الموضوع الشائك. انطلاقا من وجهة نظر المشارقة التي تسمح المصادر بالتعرف عليها ولو جزئيا. أما وجهة نظر المغاربة فستبقى في طي الكتمان لأن المصادر المعروفة لا تذكر عنها شيئا يمكن الاكتفاء به. وقبل ذلك ينبغي أن نشير إلى أن فتح شمال افريقيا الأمازيغية يدخل في إطار ما عرفه البحر الأبيض المتوسط الشرقي من صراعات بين الدولة الإسلامية الناشئة والامبراطورية البيزنطية المتدهورة. فبعد أن تمكنت الجيوش الإسلامية من تحقيق الانتصار على البزنطيين في مجموع المناطق الواقعة شمال شبه الجزيرة العربية ومصر بدأ التفكير في مطاردتهم في المناطق الواقعة غرب مصر. وذلك بمجرد إخضاع بلاد النيل لنفوذهم سنة 18 هـ 640 م.وكانت برقة وطرابلس أول الأقاليم التي أخضعتها خيل عمرو بن العاص والي مصر في ظروف لا نعرف عنها إلا القليل النادر.[55]

موقف المشارقة من المغاربة.

أولا: في عهد الخلافة.

يبدو أن فتح افريقية والمغرب وضمهما إلى الدولة الإسلامية لم يكن يكون عند كل من الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه عثمان بن عفان رغبة أكيدة أو فكرة قابلة للتنفيذ ويبدو ذلك واضحا في موقف عمر الذي عارض بشدة فكرة غزو إفريقية حين اقترحها عليه عمرو بن العاص والي مصر. وقد أورد ابن عبد الحكم هذا الحدث في العبارات التالية: «وأراد عمرو أن يوجه إلى المغرب فكتب إلى عمر بن الخطاب (...) إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام. فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه، فعل»

«فكتب إليه عمر: «لا، إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة (أو المفَرقة أي المفزعة والمخوفة) غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت (...) »[56] أو «لا أوجه إليها أحدا ما مقلت عيني الماء» أو ما حملت عيني الماء).[57]

وفي عهد الخليفة عثمان طرحت مسألة غزو إفريقية بنفس الطريقة تقريبا غير أن موقف الخليفة من ذلك تغير شيئا ما. وهذا خبر ذلك كما ورد عند ابن عبد الحكم: «فلما عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وأمر عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يبعث المسلمين في جرائد الخيل، كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون في أطراف إفريقية ويغتنمون. فكتب في ذلك عبد الله بن سعد إلى عثمان، وأخبره بقربهم من حرز المسلمين. ويستأذنه في غزوها، فندب عثمان الناس لغزوها بعد المشورة منه في ذلك...».[58]

وبالفعل فقد خرج عبد الله بن سعد في اتجاه إفريقية والتقت جيوشه مع جيوش الحاكم البيزنطي بها وهو البطريق كريكوار أو جرجير Pa-tric Grégoire، وتمكن عبد الله بن سعد من تحقيق انتصار سهل في معركة سبيطلة Sufetula وذلك في سنة 27 هـ647 م. غير أنه اكتفى بأخذ الغنائم الكثيرة والأموال الطائلة من رؤساء إفريقية قام رجع إلى مصر. ولم

تذكر المصادر أنه تم بشيء من شأنه أن يركز الوجود الإسلامي في إفريقية البيزنطية.[59]

وبعد حملة عبد الله بن سعد هذه، نظمت حملة أخرى على إفريقية بقيادة معاوية بن حديج التجيبي سنة أربع وثلاثين من الهجرة (654 - 655م)، أي سنة واحدة قبل مقتل عثمان. وعن هذه الحملة كتب ابن عبد الحكم يقول: « فافتتح (معاوية بن حديج) قصورا وغنم غنائم عظيمة.. وفيها سقطت مدينة جلولاء بالصدفة » فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها (...) » و« انصرف منها عائدا إلى مصر ».

وأضاف ابن عبد الحكم ما يلي: « غزا معاوية بن حديج إفريقية ثلاث غزوات، أما الأولى فسنة أربع وثلاثين قبل قتل عثمان (...) وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس، والثانية سنة أربعين والثالثة سنة خمسين ..[60]

ويذكر ابن عذاري أن حملة أربع وثلاثين هي أولى غزوات ابن حديج إلى المغرب، واختلف مع ابن عبد الحكم في تاريخ حملته الثانية والثالثة، إذ ذكر أن الثانية وقعت سنة واحد وأربعين بدل سنة أربعين والثالثة سنة خمس وأربعين بدل خمسين.. وفي هذه الأخيرة - حسب ابن عذاري - سقطت مدينة جلولاء عنوة خلاف ما ذكره ابن عبد الحكم من كونها سقطت في في حملة ابن حديج الأولى (34 هـ) وبمحض الصدفة.[61]

غير أن المؤرخين المعاصرين[62] يرجحون كون حملة ابن حديج الأخيرة وقعت بالفعل سنة 45 هـ 665 م، أي بعد استيلاء معاوية بن أبي سفيان على الحكم، فهي إذن تدخل في المرحلة الثانية من الفتوحات التي سيأتي الكلام عنها فيما بعد.

وقبل البحث عن أسباب مواقف الخليفتين عمر وعثمان تجاه مسألة فتح إفريقة والمغرب، نشير إلى أن الناصري مؤلف كتاب الاستقصاء (ج 1 ص75) أتى برواية تختلف قليلا عما ذكره كل من ابن عبد الحكم وابن عذاري حول أحداث غزو إفريقية في عهد الخليفة عثمان، وهذا كلامه: لما كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري - أخاه من الرضاعة - وأمره بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين للهجرة. (645م) وقال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم، ثم عقد عثمان لعبد الله بن نافع بن عبد قيس على جند، وعبد الله بن نافع بن الحرث

على آخر وسرجهما فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها. ثم إن عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده. فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به. فجهز العسكر من المدينة...(ماورد في العبارة الأخيرة تتفق عليه جل المصادر) ... وساروا مع عبد الله سنة ست وعشرين.. ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها ثم تجاوزوها إلى أفريقية...».

والجدير بالذكر أن ابن عذاري (البيان ج1 ص8) تحدث عن هذا الحادث بنفس الصيغة. إذ كتب يقول:« وفي سنة سبع وعشرين من الهجرة أمر أمير المؤمنين عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري بغزو إفريقية ». ويبدو أن مصدر هذه الرواية هو البلاذري.[63]

إننا لم نأت إلا ببعض الروايات التي لها علاقة بالمواقف العامة من قبل كبار المسؤولين تجاه فتح إفريقية (تونس) االتي كانت على ما يبدو. في البداية على الأقل. هي الهدف الأقصى للفاتحين المسلمين، ومع ذلك فإن الملاحظات التي سنذكرها هنا تنطبق كذلك على جل ما كتب عن فترة الفتوحات بصفة عامة.

أهم الملاحظات البارزة التي تمليها قراءة هذه النصوص؟

ـ 1 ـ يلاحظ وجود اضطرابات في رواية الأحداث. وفي تحديد تاريخ وقوعها وضبط الدوافع التي كانت وراءها.

ـ 2 ـ يلاحظ عدم وضوح الأهداف المتوخاة من هذه الغزوات. نظرا لاهتمام الأخباريين والرواة بالجوانب البطولية والمستفادات الحربية من غنائم وسبايا .. أكثر من غيرها.

ـ 3 ـ يلاحظ غياب تام لأخبار الأطراف الأخرى التي كانت في المواجهة مما جعل القراءة التاريخية لهذه الأحداث بالضرورة قراءة أحادية النظرة.

ـ 4 ـ يلاحظ أن انتقاء الأخبار واختيار ما يدون منها حسب الأغراض والاهتمامات شيء واضح فيما كتب عن الفترة المعنية.

كل هذه المآخذ وغيرها أعطت ما روي عن الفتوحات الأولى بصفة خاصة طابع التناقض وانعدام الدقة المطلوبة مما جعل دور المؤرخين المحللين يقتصر على الافتراض والترجيح فقط.[64]

بعد هذه النقول وما أبدي حولها من ملاحظات نعود الآن إلى موضوع البحث عن أسباب مواقف الخليفتين عمر وعثمان تجاه مسألة فتح إفريقية.

ينبغي أن ننبه أولا أن المصادر المعروفة لا تذكر شيئا يفهم منه أن عمرو بن العاص استأذن الخليفة عمر في ما قام به من غزوات في كل من برقة وطرابلس. فقد أورد ابن عبد الحكم خبر فتح برقة هكذا: فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها (وهم لواتة) على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم.(فتوح. ص: 229) .

وحسب البلاذري(فتوح البلدان: ص314) كان سير عمرو وجنده إلى برقة قد تم بعد فتح الاسكندرية مباشرة. وبين الكاتبين اتفاق بخصوص فتح برقة.

الظاهر إذن، هو أن عمرو قام بغزو برقة وطرابلس بمبادرته الخاصة ولأسباب نجهلها، ولم يخبر الخليفة عمر إلا بعد أن نفذ عملياته. وهذا ما يتضح من كلام البلاذري (نفسه. ص : 315) حين قال:« كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يخبره أنه قد ولى عقبة بن نافع[65] الفهري المغرب فبلغ زويلة، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم. قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويلة، ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه... »[66]

أما فيما يتعلق بطرابلس فيبدو أنها أخضعت بنفس الطريقة وفي نفس الظروف إذا اعتبرنا فقط ما ورد في المصادر. وقد روى البلاذري خبر ذلك كما يلي:« سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس في سنة22 هـ 642 م فقوتل ثم افتتحها عنوة (...) وكتب إلى عمر بن الخطاب:« إنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين إفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل... ».[67]

وحول هذه النقطة يلاحظ وجود تشابه بين روايتي ابن عبد الحكم والبلاذري رغم اختلاف نص الرسالة في المصدرين.

وأضاف ابن عبد الحكم في (ص231) :« فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة سَبْرَتَ.[68] وقد غفلوا، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ما شيتهم، فدخلوها، فلم ينج منهم أحد. واحتوى (جند) عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو».

وللتذكير نشير إلى أن عمرو بن العاص سلك نفس السلوك عندما أراد فتح مصر. وقد أورد البلاذري خبر ذلك على الشكل التالي:« وكان عمرو بن العاص حاصر قيسارية بعد انصراف الناس من حرب اليرموك، ثم استخلف عليها ابنه حين ولي يزيد ابن أبي سفيان ومضى إلى مصر من تلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمس مائة، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويعنفه على افتتانه عليه برأيه وأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر.[69]

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن كتاب عمر وصل إلى عمرو بن العاص قبل دخوله أرض مصر. لكنه تحايل على الرسول، ولم يأخذه منه ويعلن خبره على المسلمين إلا بعد دخوله حدود مصر.[70]

كيف يمكن تفسير هذه الرغبة الملحة لدى عمرو بن العاص في فتح مصر والأراضي الواقعة غربها. رغم أنه يعرف أن الخليفة عمر لم يكن. في بداية الأمر على الأقل. متحمسا لمثل هذه العمليات؟

من الأشياء المعروفة في كتب التاريخ أن عمرو بن العاص. كان من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية. وكان من الدهاة في أمور الدين المقدمين في الرأي...»[71] كما كان يحب الرئاسة وجمع المال .[72] وربما كانت هذه الصفات هي العناصر الأساسية لتفسير رغبة عمرو بن العاص في فتح بلد يكون هو عامله. وهو ما وقع بالفعل. وتفهم خوف عمر بن الخطاب من طموح عمرو وجموحه الذي قد يجر فرقة من جند المسلمين إلى مغامرة خاسرة.

ومما يؤكد أن لما ذكر جانبا من الصحة هو أن سير عمرو بن العاص إلى مصر تم بعد فتح بلاد الشام مباشرة. وتوزيع عمالاتها على القواد الذين شاركوا في العمليات الحربية. وكان عمرو من هؤلاء ولكن لم ينل شيئا. وإن تولى على إحدى ولايات الشام. فلمدة قصيرة جدا.[73]

وقد عرف فيما بعد أن عمرو بن العاص لم يساعد معاوية في صراعه مع علي إلا بعد أن أخذ منه وعدا بتوليته على مصر حينما ينفرد بالحكم وقد تم له ذلك بالفعل. وهذا ما يتضح من هذين البيتين اللذين ينسبان إلى عمرو بن العاص:

معاويَ لا أعطيكَ ديني ولم أنل   به منك دنيا فانظرَن كيف تصنع

فإن تعطني مصرا فأربح بصفقة   أخذت بها شيخا يضر وينفع

ثم ولاه معاوية مصر. وبها توفي عام ثلاث وأربعين للهجرة. ويبدو أنه جمع أموالا كثيرة خلال مدة توليه أمر مصر. وكان ذلك معروفا عليه.

ومما يحكى في هذا المجال أن ولده عبد الله دخل عليه لما كان على فراش الموت، « فقال له: ياولدي. خذ ذلك الصندوق. قال: لا حاجة لي به. فقال: إنه مملوء مالا، فقال: لا حاجة لي به. فقال: ليته مملوء بعرا...[75] ـ

يستنتج من كل ما سبق أن عمليات الفتوح التي وقعت في اتجاه شمال إفريقيا خلال الفترة التي حكم فيها الخليفتان عمر وعثمان. يكتنفها غموض لا سبيل لإنكاره، هذا الغموض يتجلى لا على مستوى مجرى الأحداث فحسب بل على مستوى المواقف كذلك.

فهناك الرفض القاطع الذي عبر عنه عمر والذي يرجع - على ما يبدو - إلى الخوف مما قد يجره تعدد الجبهات الحربية من تشتيت الجيش الإسلامي. خصوصا وأن الدولة الإسلامية لا تزال في بداية أمرها وأن اتساعها تم بسرعة كبيرة وأن تنظيمها إداريا وماليا وحمايتها عسكريا يتطلب الوقت الكافي والتجربة الضرورية ... أضف إلى ذلك كله البعد الجغرافي الذي يفصل إفريقية عن المدينة مركز الخلافة الإسلامية.[76]

ثم هناك موقف عمرو بن العاص والي مصر الذي يظهر أنه كان مخالفا لما يراه عمر بن الخطاب لذلك نراه يتوغل بجنده في صحراء ليبيا واستولى على برقة وطرابلس في مدة وجيزة تثير الاستغراب وتساؤلات كثيرة، وولى عليهما من قبله أحد أقربائه وهو عقبة بن نافع. وربما كان هذا الواقع هو السبب في قلة ما نجمل في مصادر الأخبار المكتوبة من معلومات كافية عن وقائع هذه الفترة من تاريخ الفتوحات.

وكيفما كان الأمر فإن السهولة المفرطة التي اخترق بها جند عمرو المناطق الساحلية لكل من برقة وطرابلس لا يمكن تصورها إلا بتحقق شرط أساسي هو انضواء شعب لواتة تحت لواء الإسلام عن رضى وطواعية، وذلك قبل أن تطأ أرجل عمرو وجنده رمال برقة.[77] وهناك موقف الخليفة عثمان بن عفان الذي يتسم، رغم حذره. بنوع من الإقدام حين تجاوز موقف عمر وأمر بغزو إفريقية بعد استشارة كبار الصحابة في المدينة.

هذا الموقف يمكن تأويله بتحسن الظروف العامة للدولة الإسلامية وبتوفر معلومات كافية عن الأحوال السياسية والعسكرية في إفريقية وداخل الامبراطورية البيزنطية بصفة عامة، والتي كانت بالفعل ظروفا مناسبة للقيام بحملة عسكرية خاطفة كالتي قام بها عبد الله بن سعد سنة 27 هـ647 م - ويبدو أن الظروف كانت مناسبة في برقة وطرابلس بتزايد عدد المنضوين تحت لواء الإسلام من الأمازيغيين، وهذا ما يفسر تضخم الجيش الإسلامي بشكل كبير بالتحاق أفواج كثيرة من الأمازيغيين المسلمين والقبط المصريين به؛ فالخليفة عثمان لم يتمكن من إرسال أكثر من ثلاثة آلاف وسبع مائة رجل من المدينة (النويري. ص:177 - 178)، في حين يتحدث المؤرخون عن جيش ابن سعد في معركة سبيطلة. ويذكرون أن تعداده بلغ عشرين ألف محارب. وربما كان العدد أكبر من ذلك.[78] كما أن طبيعة العلاقة بين كل من عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من جهة

وعثمان بن عفان وعبد الله بن سعد من جهة أخرى. يمكن أن تكون قد لعبت دورا ما في بلورة مواقف المسؤولين المذكورين. فتحفظ الخليفة عمر من عمرو بن العاص تقابله ثقة عثمان في عبد الله بن سعد أخيه من الرضاعة.[79]

وهكذا نرى أن العلاقة بين إفريقية والمشرق في عهد عمر وعثمان تتميز من قبل المشارقة المسلمين تارة بالخوف والتردد والإقدام والإحجام. وتارة أخرى بالتطلع المليء بالآمال إلى انتزاعها من قبضة البزنطيين وضمها إلى الدولة الإسلامية. خصوصا وأنها كانت مشتهرة بخصبها وغناها حتى عند نساء المدينة المنورة حسب ما ذكره الواقدي في كتاب فتوح إفريقية ..[80] وكيفما كان الأمر فإن النشاط العسكري للدولة الإسلامية بشمال افريقيا الأمازيغية في عهد الخلافة لم يسفر في نهاية المطاف إلا عن إخضاع المواقع الساحلية في منطقتي برقة وطرابلس لنفوذ والي مصر. وقد بقيت الأوضاع كذلك إلى أن انتهت الأزمة التي انفجرت بمقتل عثمان وتمكن معاوية بن أبي سفيان من أن يستبد بالحكم : إذ ذاك بدأت مرحلة جديدة من مراحل فتح شمال افريقيا الأمازيغية. وبرزت من خلال أحداثها مواقف جديدة سنحاول تحديد بعضها هنا..

ثانيا: في عهد الأمويين

إن موقف الأمويين من المغاربة الأمازيغيين ومن مسألة فتح شمال افريقيا يختلف اختلافا كبيرا عن كل من موقف الخليفتين عمر وعثمان تجاه نفس الموضوع. وسنعمل على توضيح ذلك اعتمادا على أهم الأحداث التي وقعت بين جيوشهم والأمازيغيين.

بدأ معاوية بن أبي سفيان عملياته العسكرية في المغرب بإرسال معاوية بن حديج[81] على رأس جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل. فسار حتى وصل افريقية فاتجه نحو الشمال فحاصر مدينة سوسة حتى سقطت ثم استولى على مدينة جلولاء. كما اندحر أمام جنوده بدون قتال جيش بيزنطي أرسله الامبراطور كونستان الثاني (Constant 2) عن طريق البحر ليسترد افريقية التي أصبحت بعد موت كريكوار مسرحا لصراعات دينية وسياسية أدت إلى انهيار الأوضاع فيها.

بعد هذه الغارة التي دامت على ما يبدو أكثر من سنتين ([illegible] هـ)

رجع معاوية إلى المشرق محملا بالغنائم دون أن يترك أثرا باقيا هناك.[82] ولكن حملته هذه أظهرت ضعف الوجود البيزنطي في افريقية وعجز سكانها عن حماية مدنهم بأنفسهم. كما أظهرت كذلك أن المسلمين أصبحوا متمرسين أكثر بأرض افريقية ومطلعين على الأوضاع الداخلية فيها. وبذلك أصبح القيام بخطوة أخرى في طريق الفتح أمرا ممكنا.[83] .

والجدير بالذكر أن معاوية بن أبي سفيان كافأ معاوية بن حديج. الذي كان عثمانيا متعصبا. عن أعماله المذكورة فولاه على مصر وهو في طريق رجوعه من افريقية عام 47 هـ . ولم يعزله عن متابعة شؤون افريقية والإشراف عليها إلا في عام خمسين من الهجرة 670 م. حين وجه عقبة بن نافع إليها.[84]

لقد سبق أن ذكرنا أن عقبة بن نافع كان مقيما ببرقة منذ عهد عمرو بن العاص وشارك في حملة عب الله بن سعد على افريقية. غير أن أول عمل برز به عقبة قبل أن يوليه معاوية على افريقية هو توغله عام 46 هـ 666 م. في واحات ودان[85] . وكذلك في واحات فزان[86] وكاوار[87] . التي تقع تباعا جنوب خليج سيرتا.

لقد انفرد ابن عبد الحكم بذكر أخبار هذه الحملة التي دامت خمسة أشهر. وأظهر فيها عقبة بن نافع تجاه السكان المسالمين قساوة كبيرة مشوبة بنوع من التعصب للعنصر العربي لم يكن واضحا إبان حكم الخلافة. فقد قطع أُذُن ملك ودَان وأمشى ملك فزَان على رجليه حتى أتعبه. ثم بعث به إلى المشرق مع أن سكان فزَان أجابوه إلى الإسلام. وقطع أصبع ملك كاوار ... وكلما سألته ضحيته عن الدافع إلى ذلك كان يقول لها:« أدبا لك. إذا ذكرته لم تحارب العرب».

وكان يكتفي في نهاية المطاف بأن يفرض على سكان كل من ودَان وفزَان وكاوار ثلاثمائة وستين رأسا من العبيد بمن فيهم سكان فزَان الذين أسلموا بدون حرب.[88]

والشيء الذي لا تشير إليه المصادر هو أن الطريق الذي سلكه عقبة في هذه الحملة هو واحد من أهم الطرق المؤدية إلى أسواق الذهب والرقيق في حوض نهر النيجر: كَاوْ وكُوكْيَا بالإضافة إلى كَانيم.[89] غير أننا لا نعرف هل كان الهدف من هذه الحملة هو ضمان استمرار النشاط التجاري الذي كان هذا الطريق قناة له؟ أو إعادته إليه بعد توقفه أو تحويل اتجاهه؟[90]

إذا كنا لا نتوفر على عناصر الاجابة على هذه التساؤلات فإن الشيء الذي يمكن أن يكون محققا هو أن العناء الذي تكبده عقبة بن نافع ليقطع ذهابا وإيابا مسافة تقارب ثلاثة الاف كيلومتر عبر أراض صحراوية [91] لا يمكن أن يكون المقصود منه فقط الحصول على ألف وثمانين رأسا من العبيد.[92] خصوصا إذا علمنا أن التجارة الصحراوية نشطت نشاطا كبيرا مباشرة بعد نهاية حرب الفتوح. وربما قبل ذلك. وإلا فكيف يفسر ازدهارها على الخوارج الأمازيغيين أولا منذ منتصف القرن الثامن الميلادي؟ حيث أصبحت فزان وغدامس ووارِكْلا ومزابْ وسجلماسة ونُولْ لَمْطَة مراكز كبيرة للتجارة الصحراوية.[93] أضف إلى ذلك كله أنه لم يثبت. حسب ما نعرف حتى الآن. أن سكان الواحات الليبية كونوا في وقت ما خطرا من الأخطار على الوجود العربي في شواطئ برقة وطرابلس. وهذا الموقف يعتبر بدوره لغزا من الألغاز التي تحيط بأحداث هذه الفترة من تاريخ المغرب الإسلامي.[94]

بعد رجوع عقبة من هذه الحملة استقر ببرقة إلى أن عينه معاوية على افريقية « فسار متوجها إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض مِزَاتَة فافتتح كل قصر بها. ثم مضى إلى (صفر؟) فافتتح قلاعها وقصورها. ثم بعث خيلا إلى غدامس فافتتحت غدامس. فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة فافتتحها وافتتح قصطيلية. ثم انصرف إلى القيروان فلم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج بناه قبله... ».[95].

هكذا إذن روى ابن عبد الحكم خبر دخول عقبة بن نافع إلى افريقية. والشيء المهم في هذه الرواية التي أهملها كثير من المؤرخين مع أنها تعتبر بتفاصيلها أقرب إلى الحقيقة من غيرها. أقول المهم فيها هو كون عقبة فضل أن يسلك الطريق الصحراوية بدل الطريق الساحلية. فقد انطلق من مكان إقامته ببرقة أو مَغْمَدَاس (Macomadas syrtes قديما. أي مرسى زعفران الحالية) في اتجاه وِدَّان ثم فزَان على ما يبدو. ومنها إلى جبل نفوسة ومنه أرسل خيلا لفتح غدامس. ثم اتجه بعد ذلك نحو منطقة شط الجريد حيث بلاد مِزَاتة ونِفْزاوة. وبها توجد قسطيلية وقفصة.[96]

يبدو أن عقبة سلك الطريق المذكور لا ليتجنب الطريق الساحلي الذي كان لا يزال غير مأمون[97] فقط. بل ربما كان المقصود من ذلك هو ضمان حياد القبائل الأمازيغية « البترية » القاطنة على الطريق المذكور. أو إغراؤها بالمشاركة في حملته. وذلك بمساعدة إخوانهم لواتة [98] الذين

انضموا إلى الحركة الإسلامية منذ البداية كما سبق ذكر ذلك. ويبدو أن عقبة نجح في ذلك بدليل أنه لم يلق أية مقاومة من قبل القبائل الأمازيغية المذكورة.[99]

لا شك أن المدة الطويلة التي قضاها عقبة بن نافع ببرقة والتي تقارب ربع القرن هي التي مكنته من الاطلاع على أحوال المنطقة وسكانها، وساعدته بالتالي على حبك تحالفات مصلحية مع فرق من القبائل الأمازيغية البترية المنتشرة في المنطقة. وربما كان هذا هو الأصل في كونه سلك منهجا حربيا يختلف فيه عمن سبقه من القواد المسلمين وطبقه في إطار استراتيجية جديدة ترمي إلى التمركز في البلاد. وهذا لا يتأتى إلا بضمان موالاة قبائل الواحات الليبية والتونسية أو الافريقية؛ أي بتأمين الخطوط الخلفية وببناء معسكر مناسب للأحوال الظرفية.

بعد أن تحقق الشرط الأول أصبح من الضروري البحث عن إيجاد مكان ملائم ليكون مقرا للجيش. فتم اختطاط مدينة القيروان في بداية ولاية عقبة، واكتمل بناؤها حوالي عام 55 هـ / 5 674م. وهي السنة التي عزل فيها عن ولاية افريقية،[100] وكان اختيار موقع مدينة القيروان خاضعا ولا شك لعوامل عدة منها:

- البعد عن ساحل البحر حتى لا تباغتها الجيوش البيزنطية من جهة البحر.
- توفر المراعي الضرورية والقريبة للأعداد الكبيرة من الجمال التي ترافق الجيش.
- مراقبة الطريق الرئيسية المؤدية إلى مصر لتأمين الامداد والتحكم في خط الرجعة عند الضرورة.
- مراقبة جبال الأوراس الواقعة في الجهة الغربية من السهل الذي بنيت فيه القيروان، هذه الجبال التي أصبح سكانها من أشد الأمازيغيين مقاومة للجيوش العربية، إذ بجنوبها الغربي قتل عقبة بن نافع فيما بعد، ومنها ستخرج داهيا (أوداميا، أو دحيا) زعيمة الأوراس أو « ملكة المغرب » كما يسميها عبيد الله بن عبد الحليم،[101] التي هزمت جيوش حسان بن النعمان حوالي عام77 هـ 696 م في منطقة باغاي. تيبيسا شمال غرب الأوراس. وهكذا بنيت القيروان في سهل واسع شبه صحراوي لتكون أول معسكر إسلامي قار في إفريقية.[102]

أما الجديد في منهجه العسكري فهو حرصه على توطيد الوجود

العسكري الإسلامي في المناطق التي خضعت له، أي في النصف الجنوبي من افريقية (Byzacène) وتوجيه كل مجهوده الحربي لإخضاع منطقة الهضاب الوسطى دون الاهتمام بالمدن الساحلية الشمالية التي كانت لا تزال محصنة ومحروسة.[103]

إن مصادرنا المعروفة لا تعطي تفاصيل كافية عن حروب عقبة في توليته الأولى على افريقية، ولا تذكر شيئا عن مقاومة السكان له. فابن عذاري مثلا اكتفى بالإشارة إلى هذه الأحداث في العبارة التالية: «ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى افريقية في عشرة آلاف من المسلمين[104] فافتتحها ودخلها ووضع السيف في أهلها فأفنى من بها من النصارى.[105]

ولا يختلف النويري عن ابن عذاري إلا في كونه ذكر أن عقبة ابن نافع أضاف إلى الجيش الوارد عليه من المشرق أعدادا من المسلمين الأمازيغيين من سكان برقة.[106]

ومع ذلك يمكن القول بأنه لم يصطدم بأية قوة بيزنطية ذات بال. ويبدو أن ذلك ناتج عن انشغالهم بالدفاع عن العاصمة القسطنطينية التي أصبحت مهددة من قبل الجيوش الأموية.[107] وبتهدئة الاضطرابات السياسية التي عرفتها صقلية آنذاك.[108]

أما عن السهولة التي استولى بها عقبة على جنوب ووسط افريقية فيمكن تفسيرها بعدة عوامل منها:

١ - إن هذه المنطقة كانت تتعرض على الدوام لكل الحملات المتوالية السابقة منذ حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح (647/27) مرورا بحملات معاوية بن حديج...

وللتذكير نشير إلى أن سبيطلة التي شهدت أول معركة بين الجيش الإسلامي والبيزنطي في افريقية تقع وسط هذه المنطقة.[109]

٢ - إن جل سكان المنطقة من الفلاحين المستقرين الذين لا تجمعهم وحدة سياسية، بعد أن أضعفتهم الحروب المتتالية وأفقرتهم الغرامات التي كانت تفرض عليهم كلما مرت بهم حملة عسكرية. ولاشك أن هذه الوضعية جعلت نسبة من السكان مضطرين إلى مغادرة المنطقة والالتجاء إلى أماكن آمنة، وجعلت الباقين يميلون إلى الاستسلام والانقياد حفاظا على أرضهم وممتلكاتهم.[110]

٣ - إن وجود نسبة كبيرة من الأمازيغيين المسلمين في جيش عقبة[111] ربما كان له دور كبير في عدم وقوع مواجهات عنيفة بينه وبين السكان خلال فترة توليته الأولى، إذ كانوا هم وحدهم المؤهلين للقيام بدور الوسيط بين عقبة وجنوده من جهة وإخوانهم الذين لم يسلموا بعد من جهة أخرى، لا لأنهم يتكلمون نفس اللغة فحسب، ولكن كذلك لأن سكان المنطقة الممتدة من برقة شرقا إلى الجنوب التونسي غربا ينتمون كلهم إلى أصول واحدة، وتربطهم فيما بينهم علاقات القرابة وروابط التحالفات القبلية.. فسكان النصف الشرقي من ليبيا اللواتيون وسكان النصف الغربي منها النفوسيون وسكان بلاد الجريد بجنوب افريقية النفزاويون، يعتبرون أنفسهم جميعا إخوة بالأصل المشترك، ويعتبرهم النسابون من أبناء مادغيس الأبتر.[112]

إن هذا العامل الذي لم تشر إليه بعض المصادر إلا إشارة عابرة لم يحظ بعد باهتمام المؤرخين المعاصرين رغم أنه عامل أساسي ساعد منذ البداية، وبشكل فعال، على فتح المغرب والأندلس للديانة الإسلامية.[113]

وكمثال على أهمية دور الأمازيغيين الليبيين في إنجاح عمليات الفتوح نورد ما كتبه عبد الوهاب بنمنصور بخصوص قبيلة لواتة: «كانت قبيلة لواتة تقيم بمواطنها الأصلية بالأقاليم الشرقية، وخاصة ببرقة وعلى حدود مصر، وكانت لهم في الماضي مدن عريقة مثل لبدة وزويلة وبرقة وقصر حسان. ولما بدأ المسلمون محاولاتهم الأولى لفتح الشمال الأفريقي، كانت لواتة أول قبيلة واجهوها فأسلمت وأعانتهم على الفتح، وانساحت معهم إلى جهات طرابلس وشط الجريد وجبل أوراس ومنطقة الزاب،[114]

وانتشرت بطونها وفروعها الكثيرة بعد ذلك في جميع بلاد المغرب من نهر النيل إلى المحيط الأطلسي...»[115] وقد علل ابن منصور سهولة انضمام الأمازيغيين البتر إلى العرب الفاتحين الأوائل بما يلي: «وضع البتر أيديهم في أيدي العرب لتشابه الحياة عند الفريقين واستهدافهما لكثير من المقاصد المنبعثة عن غرائز طبعا عليها، أو عادات ألفاها...»[116]

ومما يؤكد هذا الرأي ما ذكره ابن عبد الحكم من أن أهل برقة لم يحاربوا عمرو بن العاص حين نزل عليهم بعسكره، بل عاهدهم على أن يؤدوا له الجزية، وهذا يعني أن برقة فتحت بعهد.[117]

وبالمناسبة نشير إلى أن زناتة المغرب - وهم كذلك يعدون من الأمازيغيين البتر، أي أنهم إخوة للواتة[118] هم الذين سارعوا إلى نجدة عقبة بن

نافع وإنقاذه من الهلاك. لما حاصره المصامدة بجبل درن. حين كان يقود حملاته هناك خلال الفترة الثانية من ولايته على افريقية.[119]

وقد تبين فيما بعد أن الذين سارعوا إلى تنظيم المقاومة المسلحة ضد جيش أبي المهاجر ثم ضد جند عقبة بن نافع حين حاولوا التغلغل في اتجاه الغرب خارج حدود افريقية البيزنطية ليسوا من الأمازيغيين البتر. بل ينتمون إلى القسم الثاني من الأمازيغيين.:أي إلى الذين يطلق عليهم النسابون لقب البرانس. فالشخص الذي تزعم حركة المقاومة هذه كان هو كوسيلا بن لمزم البرنسي[120]

حينما بادر عقبة بن نافع إلى اختطاط وبناء معسكر يصلح للإقامة الدائمة لجيوشه.[121] وعمل على التحكم في المناطق المجاورة للقيروان وضبط الخطوط الخلفية المؤدية إلي طرابلس وبرقة.. ربما كان بعمله يأمل في أن يبقيه معاوية واليا على افريقية مدة طويلة.[122] يظهر ذلك جليا في قوله لمعاوية لما التقى به في دمشق:« فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة. ودانت لي. ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزلي.»[123]

وإذا كنا لا نعرف شيئا عن أسباب عزل عقبة عن افريقية. فإن هناك قرائن تدل على أنه فوجئ بقرار عزله الذي جاءه عام 55 هـ. 5 .644م. وأخرى تدل على أن معاوية لم يكن راضيا عن عقبة. وإلا ما كان العامل الجديد عن افريقية. أبو المهاجر دينار. مولى مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاري والي مصر الجديد ليتجرأ على عقبة:« فأساء عزله وسجنه وأوقره حديدا حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه.»[124]

لم يكتف معاوية بتعيين وال جديد على مصر وبعزل عقبة عن افريقية. بل قرر كذلك جعل افريقية اقليما تابعا للولاية المصرية . وفي هذا تراجع عن قراره السابق الذي أراد لها أن تكون ولاية تابعة للعاصمة برئاسة عقبة بن نافع.[125] ويبدو أن هذا القرار اتخذ بسبب المخاوف التي كانت تساور معاوية من مغبة نمو قوة عقبة ونفوذه في افريقية. ففضل إلحاقها بمصر التي عين عليها وال يثق به لأنه كان منذ البداية من المناصرين لحزب الأمويين.[126]

وكيفما كان الأمر فقد عين معاوية على مصر وافريقية مسلمة ابن مخلد الأنصاري. واستعمل هذا الأخير على افريقية والمغرب مولاه دينارا المكنى بأبي المهاجر. وذلك في سنة 55هـ 5 . 674م.[127] « فقدم أبو المهاجر

افريقية، فأساء عزل عقبة ونزل خارجا عن المدينة، وكره أن ينزل الموقع الذي اختطه عقبة. ومضى حتى خلفه بميلين مما يلي طريق تونس، فاختط بها مدينة وأراد أن يكون له ذكرها ويفسد عمل عقبة فبنى مدينة وأخذ في عمرانها وأمر الناس أن تحرق القيروان ويعمروا مدينته»[128]

وقد ذكر النويري أن مدينة أبي المهاجر كانت تسمى لدى الأمازيغيين تيكي روان، وقيل : بل نزل في مكان كان يسكنه أهل البلاد ويسمى: تكرور.[129] وقد يكون هذا الاسم الأخير تحريفا لكلمة تاكرورت أو تاكرارت» التي تعني في الأمازيغية المكان المسيج أو المعسكر المحصن، مثل مدينة تاكرارت المرابطية بتلمسان وتاكرارت مكناس.[130]

إن هذا الحقد المتبادل بين أبي المهاجر وعقبة الذي أشارت إليه المصادر دون ذكر أسبابه يرجع على ما يبدو إلى دوافع ذات طبيعة شعوبية، حسب ما افترضه محمد إسماعيل الذي قال:« وربما انطوى الصراع بين القائدين الفارسي والعربي على مظهر شعوبي، فقد نعت عقبة أبا المهاجر بـ « عبد الأنصار». [131] وهذا النعت تجاه شخص كأبي المهاجر لا يمكن أن يصدر إلا من شخص تملأ الغطرسة قلبه. وبالفعل، فبقدرما تظهر المصادر ما كان ينطوي عليه سلوك عقبة بن نافع من احتقار للأمازيغيين وتعصب للعرب بصفة عامة،[132] يتراءى سلوك أبي المهاجر من خلالها مخالفا تماما؛ إذ يتسم بكثير من الليونة في معاملة الأمازيغيين، ويتضح ذلك بصفة خاصة في موقفه من « كوسيلا » الذي استماله وأقنعه باعتناق الإسلام رغم أنه انتصر عليه عسكريا بنواحي تلمسان.[133].

بقي أبو المهاجر عاملا على افريقية ما يقرب من ثماني سنوات (55 ـ 62 هـ ـ 5 ـ 674 ـ 2 ـ 681 م) ومع ذلك فأخبار أعماله تكاد تكون منعدمة في المصادر المعروفة، وحتى التي أوردتها عنه المصادر فإنها وردت من خلال أخبار عقبة.[134]

هل يفهم من ذلك أن المؤرخين الأوائل أهملوا عن قصد أخبار أبي المهاجر في افريقية تحيزا لجانب عقبة؟ أم لأنهم كانوا يقفون منه موقفا مضادا؟

لتوضيح هذه المسألة لا يسعنا مرة أخرى إلا أن نضعها في إطار الصراعات المذهبية والسياسية والعرقية التي عرفتها الدولة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة والقرن الثاني منها بصفة خاصة.

هذه الصراعات انعكست بشكل واضح على الكتابات التاريخية وأثرت في توجيهها توجيها معينا..135

إن الإطار الذي نعنيه هنا هو ما كان بين العرب والفرس من تنافس وصراع، خصوصا بعد أن اعتنقت نسبة كبيرة من الإيرانيين الديانة الإسلامية وأصبحوا يدركون مدى أهميتهم كأطر لهم تجربة عريقة في الميادين الإدارية والعسكرية والعمرانية... والدولة الإسلامية الناشئة كانت في حاجة ماسة إليهم.

ولقد لخص محمود إسماعيل هذه المسألة في العبارات الآتية:« بعد إتمام فتح العراق وإيران أسهم الفرس في الحياة الإسلامية. فقد أصبحوا رعايا على قدم المساواة مع العرب في العصر الراشدي، كما استمر نشاطهم في العصر الأموي بالرغم مما شابه من مظاهر التعصب للعرب ؛ إلا أن بني أمية لم يتجاهلوا إمكانية الاستعانة بـ« الموالي » لرصيدهم الحضاري وبالذات في النواحي العسكرية والإدارية والمالية. وحسبنا دور الفرس في الفتوح الأموية شرقا في بلاد الهند وتركستان.

ولذات الأسباب استعان الأمويون بالموالي في حركة الفتوح غربا، خاصة وأن للفرس تجارب عريقة في الصراع مع البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على بلاد المغرب (...). لذلك لم يكن غريبا أن يساهم الفرس في الفتوحات الإسلامية غربا. فقد اشتركت أعداد غفيرة منهم في الحملات الاستكشافية التي أنفذت في خلافتي عمر وعثمان، وكانوا إما من العناصر الإيرانية الخالصة في إيران والعراق أو من موالي العرب في شبه الجزيرة الذين قدموا مع سادتهم. بل من الفرس من نيط بقيادة بعض الحملات التي انفذت إلى بلاد المغرب في العصر الأموي. والمراجع لا توضح ذلك بشكل مباشر، فلم نعثر على نص واحد يبرز للفرس دورا في هذا الصدد. إنما ترد الحقيقة في ثنايا النصوص ». 136

وكيفما كان الأمر فإن الإشارات القليلة والمختصرة التي أوردتها المصادر بخصوص نشاط أبي المهاجر في افريقية تظهر أنه نجح في مهمته نجاحا كبيرا. فبالإضافة إلى كونه اختط معسكرا جديدا (تيكيروان) على بعد ميلين شمال معسكر عقبة (القيروان) فإنه كان أول قائد عسكري مسلم تغلغل بجيشه في اتجاه الغرب حتى وصل إلى نواحي تلمسان. وتمكن من استمالة واحد من كبار زعماء الأمازيغيين حتى اعتنق الإسلام، و وتعني

هنا زعيم البرانس كوسيلا.[137] ولا يستبعد أن تكون «قبيلة» أوربة قد أسلمت هي بدورها اقتداء بزعيمها.[138] وبذلك يكون أبو المهاجر قد دشن بسلوكه هذا أسلوبا جديدا لم يسبق إليه في التعامل مع السكان. لم يسلكه بعده على ما يظهر إلا حسان بن النعمان وطارق بن زياد وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. [139]

لما وصل عقبة بن نافع إلى افريقية في ولايته الثانية عليها عام 62 هـ. 681 م كان أول ما قام به هو الانتقام من سلفه « فأوثق أبا المهاجر في الحديد وأمر بتخريب مدينته التي بناها، ورد الناس إلى القيروان.. ».[140] « فاضطغن على كسيلة صحبته لأبي المهاجر ونكبه » على حد قول ابن خلدون.[141]

ونكبة كوسيلا هذه وصفها النويري في العبارات الآتية:« كان كسيلة هذا من أكابر البربر، وكان قد أسلم في ولاية أبي المهاجر، وحسن إسلامه. وقدم عقبة فعرفه أبو المهاجر بحال كسيلة وعظمه في البربر وانقيادهم إليه، فلم يعبأ بهم عقبة واستخف به وأهانه. فكان من إهانته له أنه أتى بغنم فأمر بذبحها وأمر كسيلة أن يسلخ منها شاة، فقال:« أصلح الله الأمير، هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة ». فسبه عقبة وأمره بالقيام فقام مغضبا وذبح الشاة (...) فقال أبو المهاجر لعقبة:« ما صنعت؟ أتيت إلى رجل جبار في قومه، وبدار عزه، وهو قريب عهد بالشرك فأفسدت قلبه،أرى أن توثقه كتافا فإني أخاف عليك من فتكه » فتهاون به عقبة. ».[142]

إن أهمية ما أوردنا بخصوص بعض المواقف الشخصية لدى عقبة تكمن في كون هذه المواقف، حطمت كل المكاسب التي حققها أبو المهاجر. مما يدل على أن كثيرا مما كان يقوم به الولاة في هذه المناطق كان يخضع في غالب الأحيان للرغبات الذاتية والأهواء الشخصية التي لا تزيدها مواقف السلطة المركزية المتسمة باللامبالاة أو التواطؤ إلا جنوحا إلى المبالغة أو الشطط.

وإذا كنا نستبعد أن تكون قصة كوسيلا مع عقبة هي السبب الوحيد الذي أدى إلى تنظيم حركة المقاومة التي تزعمها كوسيلا نفسه، والتي انتهت باستيلاء هذا الأخير على القيروان بعد مقتل عقبة في تهودة عام 64 هـ. 683 م.[143] فإن الشيء المؤكد هو أن الأحداث التي عرفتها هذه الفترة هددت بشكل خطير كل المكتسبات الإسلامية السابقة في أرض

افريقية والمغرب. وأخرت تقدم الفتوحات في المنطقة ما يزيد عن خمس عشرة سنة.

فمنذ مقتل عقبة (683م) أصبحت افريقية منطقة نزاع بين الأمازيغيين بقيادة كوسيلا ثم داهيا (أو داميا). والعرب المسلمين بقيادة زهير بن قيس البلوي ثم حسان بن النعمان. ولم تعد إلى ما كانت عليه من قبل إلا بعد مقتل زعيمة جراوة والأوراس سنة 698م

وقد أكد عبد الله العروي مسؤولية عقبة عن هذه الوضعية بقوله : « إن سياسة عقبة المليئة بالحماس والتشدد، ربما كانت، أكثر من مصاعب الخلافة، هي المسؤولة عن تأخر إخضاع شمال افريقيا » 144

لقد أظهرت المصادر المعروفة عقبة بن نافع من خلال أعماله أثناء فترة توليته الثانية كأول من وصل بالعمليات العسكرية إلى أقصى غرب شمال افريقيا، وجعلته يجول في المغرب الأقصى شماله وجنوبه . غربه وشرقه مخترقا جباله ومنتصرا على سكانه متلافية في آن واحد الإلحاح على تعداد غنائمه وتفصيل الحديث عن السبايا كما فعلت على سبيل المثال بالنسبة إلى موسى بن نصير.145

غير أن بعض المؤرخين المعاصرين عبروا عن شكهم في ذلك. وهكذا نجد روبير برونشفيك يكتب حول هذه المسألة ويقول:« إذا كان من الممكن أن ننظر إلى حملة عقبة بن نافع على أنها حقيقة تاريخية فإن سلامة الحس تحذونا إلى أن نقصرها على « الجزائر » الوسطى. وربما جاز أن نقول إنها بلغت على أكثر تقدير منطقة وهران الحالية ووادي نهر شليف. حتى نعثر على ما يدحض ذلك الفرض ».146

وقد رد ليفي بروفانصال على ما ذهب إليه برونشفيك بقوله:« وإذا كان الشك قد أحاط إلى الآن بحملة عقبة بن نافع على المغرب الأقصى على أنها حقيقة تاريخية. فإن السبب في ذلك يرجع إلى قلة النصوص التي تتحدث عنها وقلة التفاصيل التي توردها هذه النصوص (...) ويبدو أن دراسة التفصيلات الدقيقة التي يوردها البيان (ابن عذاري) تستدعي إعادة النظر في هذا الرأي وتبررها .. » 147

وإذا كان المبرر الأساسي في رد پروفنصال على برونشفيك هو عدم اطلاع هذا الأخير على ما كتبه ابن عذاري حول الموضوع فإن عبد الله العروي الذي اطلع على كل هذا يتفق مع برونشفيك فيما ذهب إليه من

كون حملة عقبة لم تتجاوز نواحي تلمسان ووهران. ويتردد في قبول ما يرويه ابن عذاري حول الموضوع ويؤكده ليفي بروفنصال.[148]

إن الفصل في المسألة يبدو بالفعل شيئا عسيرا، لأن الأخبار التي تدور حولها يعتريها الاضطراب والتناقض في جميع المصادر التي أوردتها،[149] والنصوص المتعلقة بها لم تدرس قط دراسة نقدية كافية لإبراز مدى انسجامها ومدى صحة مضمونها أو عدم صحته؛ أضف إلى ذلك صعوبة القيام بحملة عسكرية كبيرة انطلاقا من القيروان إلى طنجة ثم السهول الأطلسية ودرعة وسوس والرجوع منها إلى المنطلق أو ما يقرب منه في مدة تقل حسب تقديرنا عن سنتين،[150] خصوصا إذا علمنا أن رحلة عقبة في اتجاه الغرب كانت حسب ابن عذاري وغيره مليئة بالمعارك الحربية العنيفة على طول البلاد وعرضها، كما جعلته يخترق بجيوشه جبال الأطلس أربع مرات، وكل هذا سيؤدي حتما إلى عرقلة سير الجيش وبالتالي إلى بطء حركته.[151]

ومع ذلك فإن تكذيب ما ورد في النصوص المذكورة حول مسألة فتح عقبة للمغرب الأقصى يبدو الآن صعبا بالرغم مما قيل عن عيوبها، لذلك انطلقنا في اتجاه آخر علّه يفتح الطريق المسدود الذي انتهت إليه المسألة.

إننا نعتقد أن كتاب تلك النصوص ربما وقعوا في خطأ الخلط بين عقبة بن نافع وحفيده حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الذي أرسل إلى المغرب الأقصى في ولاية عبيد الله بن الحبحاب على افريقية.(116 ـ 123 هـ ـ734. 741 م).

وعن حبيب هذا كتب ابن عذاري ما يلي:« وبعث (ابن الحبحاب أو عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة) حبيب بن أبي عبدة بن نافع الفهري، غازيا السوس الأقصى فبلغ أرض السودان، ولم يقابله أحد إلا ظهر عليه، ولم يدع بالمغرب قبيلة إلا داخلها ، وأصاب من السبي أمرا عظيما...».[152]

كما أنه يمكن أن يكون هذا الخلط متعمدا، وتنسب أعمال الحفيد لجده نظرا لما كان يتمتع به عقبة من تقديس واعتبار من قبل الكتاب المغاربة؛ فهو الفاتح المثالي باني القيروان ـ أول مدينة إسلامية في الغرب الإسلامي ـ وشهيد الإسلام، فالإشادة بأعماله الحقيقية وغير الحقيقية لا يزيده إلا تعظيما في النفوس وتعميقا لذكراه في قلوب الناس خدمة للدين وتركيزا له.[153]

وربما كان هذا هو التفسير الأكثر احتمالا بكون الرواية التي تعطي تفاصيل غير معهودة. في مثل هذه الحالات. عن حملة عقبة في المغرب الأقصى. هي الرواية المغربية الخالصة التي يمثلها عبيد الله بن عبد الحليم فيما سمي بـ:« نص جديد عن فتح العرب للمغرب » الذي نشره ليفي پروفانصال، وفي ابن عذاري في كتاب « البيان المغرب ».

وقد لخص حسين مؤنس هذا الرأي في تعليقه على النص المذكور في العبارات التالية:« ولا يمكننا القول بأن رواية عبيد الله تمثل الرواية المغربية الخالصة إلا فيما يتصل بحملة عقبة على المغرب الأقصى، فهو يعطينا هنا معلومات طيبة يستقيها من مصادرها الأولى. ولا يقلل من أهمية هذه المعلومات أن ابن عذاري يرويها حرفا بحرف تقريبا، لأن الروايتين تؤيد إحداهما الأخرى في هذه الحالة.إذ إن عبيد الله بن عبد الحليم وأبا العباس أحمد ابن عذاري متعاصران تقريبا». 154.

يمكن أن نذهب إلى أكثر من ذلك ونقول بأن الرواية المذكورة رواية مصمودية ذات خلفية دفاعية ترمي إلى جعل المصامدة من أوائل الأمازيغيين المسلمين. وإلى جعل إسلامهم على يد أحسن الفاتحين الولي المستجاب الدعوة شهيد الإسلام عقبة بن نافع. (!) ومما يؤكد هذا الرأي هذه الفقرات التي نستقيها من كتاب البيان لابن عذاري:« ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولاة خلفاء بني أمية بالمشرق إلا عقبة بن نافع الفهري، ولم يعرف المصامدة غيره. وقيل إن أكثرهم أسلموا طوعا على يديه.». 155

مختصرات

(عن مرحلة ما بعد عقبة بن نافع).

إن مرحلة الفتوحات. الغزوات التي تلت مقتل عقبة بن نافع تتميز بكونها استغرقت الفترة التي حكم فيها عبد الملك بن مروان 86;85 هـ 705,685 م وابنه الوليد (86 - 90هـ 705- 715م) وعين فيها على افريقية ثلاثة قواد هم : زهير بن قيس البلوي (69 - 73هـ - 692 688م) وحسان بن النعمان (73 -86هـ 692 - 705م) وموسى بن نصير (86 - 96هـ 705- 715م).

وبرز فيها من الزعامات الأمازيغية كوسيلا (كوزول. كورزيل. كُءوسيلا ...) وداهيا (داميا ...) اللذان تزعما بالتوالي حركة المقاومة ضد البعوث العسكرية الأموية (683 - 698 م). وفيها تم عبور شمال افريقيا إلى طنجة وغزو الأندلس (بلاد الوندال) عام92 هـ 711 م

فهي إذن عرفت أحداثا هامة أثرت إلى حد كبير على مصير سكان شمال افريقيا، ومع ذلك فإننا مضطرون هنا إلى استعراضها فقط وبإيجاز كبير.

١. بعد معركة تاهودا (تازوضا. تاودا...؟) زحف كوسيلا على القيروان «فلما قرب منها. على حد قول ابن عذاري. خرج من كان فيها هاربين (...) فءمَن كوسيلا من بقي بالقيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميرا على سائر افريقية والمغرب...»

٢ . مضى على ذلك حوالي أربع سنوات، بعدها قاد زهير بن قيس البلوي الذي التجأ إلى برقة (القسم الشرقي من ليبيا) هو ومن معه بعد انهزامه أمام جيوش كوسيلا الأمازيغية: قاد حملة عسكرية في اتجاه افريقية، ودارت معارك دامية بينه وبين كوسيلا بـ« مامُس» قرب القيروان انتهت بمقتل الزعيم الأمازيغي، ودخول زهير إلى القيروان، غير أنه لم يبق فيها إلا مدة قصيرة حيث اضطر إلى الهروب مرة أخرى إلى برقة، وهناك قتل

حين وصوله إليها.

٣. حوالي عام 72-73 هـ 691 - 692م تمكن حسان بن النعمان الذي عين مكان زهير من استرجاع القيروان وأخذ قرطاج في السنة الموالية. ولكن لمدة قصيرة فقط. وبينما هو يحارب في الشمال الشرقي لافريقية. إذ أخبر بتجمع سكان جبال الأوراس تحت زعامة الأميرة الأمازيغية داهيا ودارت بين الجيشين معركة حامية في منطقة تيبيسا (جنوب غرب افريقية تونس الحالية. انتهت بانهزام جيش حسان والتراجع إلى منطقة طرابلس القسم الغربي من ليبيا الحالية».

٤. في عام. 76 هـ. 695 م عاد حسان إلى افريقية على رأس جيش أكثر عددا. فأخذ مدينة قرطاج بصفة نهائية هذه المرة. وانتصر على داهيا سنة 79 هـ. 698 م، وقتلت في المعركة في ظروف لا يعرف أحد تفاصيلها.

٥. بعد أن عزل عبد العزيز بن مروان. والي مصر آنذاك. حسان ابن النعمان عن افريقية ولي مكانه موسى بن نصير. واستفاد هذا الأخير من الأوضاع العسكرية والاقتصادية المتدهورة في مجموع المنطقة. واجتاح بسهولة، وبمساعدة عشرات الآلاف من الأمازيغيين الزناتيين (الرعاة) بصفة خاصة المغرب الأوسط والأقصى في قسميهما الشمالي فقط، وخلف في شمال المغرب طارق بن زياد (قد يكون واحدا من أبناء داهيا). على رأس جيش يتكون من عدة آلاف من الرجال كلهم من رهائن الأمازيغيين المجندين قسرا. وبهؤلاء تمكن طارق بن زياد من غزو الأندلس للعرب عام 92 هـ. 711 م. وبذلك انتهت فترة الفتوحات وبدأت فترة الحكم المباشر. الفترة التي عرفت أحداثا أخرى من نوع متميز.

(الهوامش)

(1) - انظر على سبيل المثال حسن ابراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. الجزء الأول القاهرة 1961ص203 - 232.

(2) - نفسه. ص 215. وما بعدها. وبالنسبة إلى شمال افريقيا انظر:

_Ch_A.Julien , Histoire de l'Afrique du nord , Paris ; 1975, t . I , pp.256.270.271 .

- A.Laroui. L'histoire du Maghreb , Paris 1970, p 75.

- François Decret / Mohamed Fantar, L'Afrique du Nord dans l'antiquité, des origines au V° siècle , Paris . 1981, p 346 .

(3) - انظر. أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر كتاب السيرة وأخبار الأئمة. تحقيق عبد الرحمن أيوب. تونس 1985 ص 52 وما بعدها. النويري (أحمد بن عبد الوهاب). تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط. من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق مصطفى أبو ضيف. الدار البيضاء.1984ص187.

(4) - انظر ابن عذاري. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ومراجعة. ج. س. كولان . وإ. ليڤي پروڤنصال. بيروت 1983 ج1 ص,42,38,25

-A.Laroui , op.cit , pp.119,128.

(5) - انظر:

-G.Marçais . La berbérie musulmane et l'orient au Moyen-Age , Paris . 1946, p.101 .

(6) - عبد الله العروي المرجع السابق. ص:116وما بعدها: محمود اسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. الدار البيضاء،1976، ص: 271 وما بعدها.

(7) - انظر على سبيل المثال: ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب. تحقيق عبد المنعم عامر 1961 ص.229 - 231 - 246 - 247- 260- 261- 270- 275 - 279 وما بعدها : ابن عذاري، المرجع السابق ج1 ، ص:39 - وما بعدها.

(8) - انظر: النويري. المرجع السابق. ص: 204 : ابن عذاري، المرجع السابق ج1 ، ص:42 - 43.

(9) - انظر:

-Mohamed Talbi , Hérésie, acculturation et nationalisme des berbères bargawata .in Actes du premier congrès d'études des cultures méditérranéennes d'influence arabo-berbère . S.N.E.D. , Alger , 1973, pp.218.220.225 et passim.

. محمود اسماعيل. الخوارج في المغرب، ص: 260 - 286. - أبو العرب (محمد بن أحمد القيرواني) طبقات علماء افريقية وتونس. تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي تونس \ الجزائر 1985ص 7وما بعدها - الناصري (أحمد بن خالد) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء 1954 ج1 ص 136 وما بعدها.

(10) - انظر: شارل أ. جوليان. المرجع السابق، ج1 ص 264-268-269 ع. العروي، المرجع السابق . ص: 73-74 :

- G.Camps . Berbères , Aux marges de l'Histoire ,Editions des Hespérides . 1980 . p.178.

(11) - انظر: شارل .أ. جوليان. المرجع السابق، ج2 ص17 وما بعدها.

(12) - انظر: ابن عبد الحكم: المرجع السابق. ص 262 - 263 - 289 - 293 - 294 - النويري - المرجع السابق، ص- 193 -212 -213 : ابن عذاري ، المرجع السابق ج1 - ص 29 -48 -51 -52 الناصري، استقصا ، ج 1 - ص106 - 136.

(13) ـ انظر ابن خلدون، المقدمة، بيروت 1978. ص 164.

(14) ـ انظر على سبيل المثال طريقة إسلام زناتة في عهد حسان بن النعمان في الذخيرة السنية لابن أبي زرع . الرباط1972 ، ص17 ؛ وكذلك ابن عذاري، البيان، ج1 ص38 ؛ وكذلك عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ـ أخرجه ليفي بروفنصال ـ في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثاني 1954 ص223 ؛ حسن ابراهيم حسن تاريخ الإسلام ج1 ، ص280 .

(15) ـ هذا التداخل في المواقف بين الديني والسياسي هو الذي جعل ابن خلدون بدون شك يستعمل كلمة «الثورة» بجانب كلمة «الردة» حين قال« وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى»، المقدمة، ص 164: انظر كذلك، العروي، المرجع السابق ص149 ، 80 .

(16) ـ انظر ج. مارسيه، المرجع السابق، ص 27 ومابعدها،35ومابعدها،39 وما بعدها :

لا تذكر لنا المصادر التاريخية مثلا متى أسلم أهل برقة اللواتيون الذين صالحهم عمرو بن العاص «على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية...» (ابن عبد الحكم ، فتوح، ص230 : كما لا نعرف كيف دخل أهل طرابلس في الإسلام (المرجع نفسه، ص230 وما بعدها : ابن عذاري، البيان، ج1 ص8 وما بعدها

ابن خلدون تاريخ البربر (بالفرنسية) ترجمة دوسلان، 1968، ج.1 ، ص212،210.

وعن إسلام أهل فزان انظر:

Robert Brunschvig . Ibn Abdelhakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes . dans A.I.E.O. d'Alger vol.VI (1942-1947). p.120-121.

كما أن كلمة الدعوة إلى الإسلام قليلا ما تورد المصادر أن الفاتحين الأوائل كانوا يولونها أهمية ما.

(17) ـ انظر ع. العروي، المرجع السابق، ص 81 وما بعدها

(18) ـ انظر أبو زكرياء، كتاب السيرة، ص57 وما بعدها ؛ محمود إسماعيل، الخوارج .. ص54 وما بعدها : صالح باجيه، الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى ، تونس1976 ، ص 57 وما بعدها.

(19) ـ انظر أبو العرب ، طبقات ...، ص7 وما بعدها ؛ ابن عذاري ، البيان .. ج1 ، ص52 وما بعدها ؛ محمود إسماعيل ، الخوارج ، ص62 وما بعدها، 82 وما بعدها : الناصري، استقصا، ج1 ص136 وما بعدها.

(20) ـ انظر ج. مارسيه، المرجع السابق، ص 43-53.

(21) ـ المرجع السابق، ص260 ـ 286 : ابن عذاري. البيان .. ص70 ؛ الإباضية بالجريد .. ، ص152 وما بعدها.

(22) ـ انظر

-Alfred Bel . La religion musulmane en Berbérie . Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses . Tome I . Paris 1938 . pp.145 sqq.

ـ محمود إسماعيل ، الخوارج ، ص43.

(23) ـ انظر ع. العروي، المرجع السابق. ص 124-123 : ـ محمود إسماعيل ، مغربيات ، دراسات جديدة ، المحمدية 1977 ص 59، 78. 80

(24) ـ محمود إسماعيل ، مغربيات ...، ص 78.

(25) ـ عن نضال رجال المذهب المالكي الطويل في افريقية، انظر ، محمود إسماعيل ، مغربيات .. ص 57 ، 80.

(26) - عن محنة الشيعة بافريقية، انظر: ابن عذاري ، البيان .. ج1 ، ص268 وما بعدها. ص 273 وما بعدها.
(27) - انظر ابن خلدون، المقدمة، ص 190 وما بعدها : 209
حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج1 ص428 وما بعدها ، 103.
(28) - انظر صالح باجية، الإباضية.. ، ص 24 وما بعدها.
(29) - انظر ابن خلدون، المقدمة، ص 342 وما بعدها 357 وما بعدها : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج1 ص516 وما بعدها
وانظر كذلك:

- Histoire du Maroc (collectif), Hatier 1967, pp.63 , sqq .
- Henri Terrasse . Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français . Casablanca 1949 , tome I , p.207 sq.

ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، الرباط 1973، ص32 وما بعدها.
(30) - انظر ابن خلدون، المقدمة، ص153 ، 400 ، وما بعدها 406 وما بعدها.
انظر كذلك:

- Germaine Tillion , Le Harem et les cousins , Paris 1966, pp.187 sqq.

(31) - انظر :
محمود إسماعيل ، الخوارج ، ص 271 . وما بعدها 279 وما بعدها : صالح باجية، الإباضية.. ، ص6 وما بعدها ، 14 وما بعدها، 90 وما بعدها.
(32) - انظر ع. العروي، المرجع السابق، ص 78 ، 86.
(33) - انظر .

- E.F. Gautier . Le passé de l'Afrique du Nord , Paris 1937, p.234-35.

(34) - فتوح .. ، ص 262 وما بعدها.
(35) - انظر ع. العروي، المرجع السابق، ص 77 ,وما بعدها : وكذلك، النويري. المرجع السابق ، ص 191 وما بعدها.
(36) - انظر ج. مارسيه، المرجع السابق، ص 29.
(37) - الإباضية بالجريد .. ، ص 90 وما بعدها . ع. العروي، المرجع السابق، ص119.
(38) - الخوارج... ص276 ، 275 .
(39) - المرجع نفسه ، ص279 وما بعدها : انظر كذلك: ج. مارسيه ، المرجع السابق ص24 ، 110 وما بعدها :
وكذلك:

- M. Lombard, L'Islam dans sa première grandeur , Paris 1971 , pp.236,242 sqq.

(40) - انظر ع. العروي، المرجع السابق، ص 126 وما بعدها 129 وما بعدها ،149 وما بعدها : انظر كذلك:

- Louis Massignon . Le Maroc dans les premières années du XVI° siècle . Alger 1906, p.124.

(41) - انظر. المختار السوسي، سوس العالمة ، الدار البيضاء، 1984، ص14 وما بعدها .
الإباضية بالجريد .. ، ص 156 وما بعدها ، 179 وما بعدها.
ابن خلدون، المقدمة، ص 379 وما بعدها ، 430 وما بعدها.
(42) - انظر ج. مارسيه، المرجع السابق، ص 40 وما بعدها.

(43) - انظر الأضبة بـ جرسـ ص 57 وما بعدها. انظر كذلك التادلي التشوف إلى رجال التصوف تحقيق أحمد التوفيق 1984، ص [illegible] وكذلك

- G.Deverdun. Marrakech des origines à 1912 . Rabat 1959 . p 29.440

- انظر المختار السوسي. إيليغ قديما وحديثا. الرباط، 1966. ص48 . هانري تيراس، المرجع السابق ج2 ص 26 وما بعدها

(44) - انظر ابن خلدون، المقدمة. ص 257 . 246 وما بعدها 393 وما بعدها ، 543 وما بعدها 545 وما بعدها.

(45) - انظر :

- Mohamed Kably . Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Age. Paris 1986. pp.171.265.271 sqq. 279 sqq.

وكذلك: المختار السوسي، سوس العالمة ، ص27.

(46) - انظر ابن خلدون، المقدمة، ص 401 وما بعدها 417،406 وما بعدها 421 وما بعدها.

(47) - انظر ع. العروي، المرجع السابق، ص 82 وما بعدها : ج. مارسيه، المرجع السابق، ص 40 وما بعدها ، 128 وما بعدها.

(48) - انظر : ابن أبي زرع ، الذخيرة.. ، ص 17.

(49) - هذه الظاهرة أقدم من الحالة التي نتحدث عنها هنا، وبالنسبة إلى ما نحن بصدده فإن الأمثلة التي تثبت ما نقول كثيرة في المغرب وشمال افريقية الأمازيغية بصفة عامة. ولكن أحسن مثال على ذلك يتجلى على ما يبدو في سكان الصحراء المغربية وبعض الأطراف من مناطق السهوب ماقبل مدارية أو الشبه صحراوية.

(50) - عن موضوع التعريب التاريخي لإفريقيا الشمالية الأمازيغية الذي لم يحظ بعد باهتمام الباحثين رغم أهميته،

انظر:

- William Marçais , Comment l'Afrique du Nord a été arabisée . dans William Marçais , Articles et conférences , publications de l'Institut d'Etudes Orientales . Faculté des Lettres d'Alger , Paris 1961 . pp.171-192.

(51) - انظر ج. مارسيه، المرجع السابق، ص19 ـ 42 : عبد الله العروي ، المرجع السابق ، ص76 ـ 96.

(52) - انظر محمود اسماعيل ، مغربيات.. ، ص 5 وما بعدها، ص 15 وما بعدها. انظر كذلك

- A.Laroui , Histoire positive et idéologie nationaliste dans l'historiographie arabe contemporaine . dans Les cahiers de sociologie . Rabat 1965 , N° 1 , pp.55-65 .

(53) - انظر عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت1960 ، ص 122 وما بعدها ، ص131وما بعدها.

(54) - لا أعتقد أن ما قلته هنا يحتاج إلى دليل إثبات. ومع ذلك ينبغي الإشارة إلى أن هناك بعض التحول في العقلية المغربية تجاه هذه المسألة، خصوصا بعد أحداث الخليج الأخيرة.

(55) - انظر ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص229 وما بعدها.

(56) - فتوح ، ص232.

(57) - أبو العرب ، طبقات ، ص67 . النويري ، المرجع السابق ص176 .

(58) ـ فتوح ، ص246 : انظر كذلك:ابو العرب ، طبقات ، ص65 وما بعدها.
(59) ـ انظر على سبيل المثال: ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص246 ، ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص 9 وما بعدها : النويري ، المرجع السابق ص 176 وما بعدها : العروي ، التاريخ ، ص 77 .
(60) ـ فتوح ، ص260;261 : انظر كذلك: بو العرب ، طبقات ، ص71.
(61) ـ البيان ، ج1 ص 14، 16، 17 : انظر كذلك: النويري ، المرجع السابق ، ص186 .
(62) ـ استقصا .. ، ج1 ص 77 : العروي ، التاريخ ، ص 77 .: جورج مارسيه المرجع السابق ، ص30 .
(63) ـ فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع ، بيروت 1957 : بخصوص تاريخ هذه الغزوة تردد هو أيضا بين السنوات: 27 هـ و 28 و 29 .
(64) ـ انظر: روبير برونشفيگ ، ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص155-108 : ليڤي پروڤنصال ، في مقدمته لـ « نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، ص 193 وما بعدها. وتعليق حسين مؤنس عليه ص225 وما بعدها : جورج مارسيه ، المرجع السابق ، ص22 وما بعدها : ع .العروي ، التاريخ . ص 79، 76.
(65) ـ وهو ابن خالته حسب ماورد في ، الاستقصا ، ج1 ص78 وابن أخيه من أمه على حد قول البلاذري ص 331.
(66) ـ إن مسألة دخول الشعب اللواتي تحت نفوذ الدولة الإسلامية مسألة لا توضحها الأخبار النادرة والمتناثرة في كتب الأخبار، كما أنها لا تبرز، إلا نادرا، الدور الخطير الذي لعبه الشعب المذكور في إنجاح عمليات الفتح في بلاد الأمازيغ.
(67) ـ ، فتوح البلدان ، ص 316 .
(68 ـ هي صبره أو صبراطه أو SABRATHA وتقع جنوب طرابلس المدينة.
(69) ـ ، فتوح البلدان ، ص 298 .
(70) ـ ، فتوح البلدان ، ص 82-81 : انظر كذلك: حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ص 234.
(71) ـ انظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس بيروت (بدون تاريخ) ، المجلد السابع ، ص 215 .
(72) ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 213 ، 215.
(73) ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 214 .
(74) ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 215.
(75) ـ وفيات الأعيان ج 7 ص 215 :
وانظركذلك::
المراسلات المتبادلة بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص بخصوص تأخير خراج مصر ، وهي تتضمن إشارات إلى ما ذكر ، كما تظهر جانبا من طبيعة العلاقة بين الخليفة عمر ووالي مصر عمرو (فتوح مصر والمغرب ، ص213 ـ216).
وتجدر الإشارة إلى أن عزل عمرو بن العاص عن مصر كان من بين أسباب قتل الخليفة عثمان. وعمرو بن العاص متهم بتدبير اغتيال الخليفة : انظر حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج1 ص259 . :
(76) ـ انظر ع. العروي ، التاريخ ص77.

(77) - ومما جعلنا نفترض ذلك ما أورده مؤلف الاستقصا (ج1 ، ص74) من أن عمرو بن العاص حينما كان واليا على مصر بعد فتحها « قدم عليه ستة نفر من البربر محلقين الرؤوس واللحى، فقال لهم عمرو من أنتم؟ وما الذي جاء بكم؟ قالوا رغبنا في الإسلام فجئنا له، وجههم عمرو إلى الخليفة عمر مباشرة. وبعد وصولهم إليه «كلمهم الترجمان على لسان عمر فقال لهم من أنتم؟ قالوا : نحن بنو مازيغ...»

انظر كذلك أبو زكرياء، كتاب السيرة، ص 53-54 وفي هذا المصدر وردت إشارات إلى أن اتصال أبناء أمازيغ بالإسلام كان منذ عهد الرسول عليه السلام (نفسه، ص52 وما بعدها).

(78) - انظر ابن عذاري، البيان، ج1، ص9 وما بعدها، النويري، المرجع السابق، ص 177 وما بعدها؛ الناصري، استقصا، ج 1 ص 75، وما بعدها، ابن منصور (عبد الوهاب)، قبائل المغرب ج1، الرباط، 1968، ص109 - 110.

(79) - انظر ابن عذاري، البيان، ج1، ص9 وكذلك تعليق حسين مؤنس على نص جديد عن فتح العرب للمغرب، السابق الذكر، ص226 وما بعدها، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ، ج 1، ص259؛ ابن عبد الحكم، فتوح، ص233.

(80) - انظر. محمد الواقدي، فتوح افريقية، تونس، (مطبعة المنار) 1966 ج1، ص102.

(81) - معاوية بن حديج كان مع ابن سعد بمصر منذ عام 31هـ على الأقل، وقد شارك في حروب النوبة وفيها فقد إحدى عينيه بنبل النوبيين. ومعنى هذا أن عبد الله بن سعد هو الذي كلفه بغزو افريقية سنة 34 هـ 654-655م.

ويبدو أنه رجع إلى مصر بعد مقتل عثمان أو قبل ذلك، واختاره الحزب العثماني في مصر رئيسا له ضد الحزب العلوي. وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر آخر عمال مصر من قبل الخليفة علي ابن أبي طالب «ثم جعله في جيفة حمار وأحرقه بالنار»، وذلك في أوائل عام 38هـ \ 659م.

وفي هذه السنة عين معاوية بن أبي سفيان واليا على مصر واحتفظ بها إلى أن مات بها سنة 43هـ \ 663م.

وفي هذه الفترة وقعت غزوة ابن حديج الثانية إلى افريقية عام 41 أو 42 هـ، أي بأمر من والي مصر عمرو ابن العاص. وبعد موت ابن العاص عين معاوية مكانه عتبة بن أبي سفيان، وأمر شريك بن سُمَيّ بغزو لبدة بأرض ليبيا. وبقيت الأمور كذلك إلى أن أمر معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج بالقيام بغزو افريقية عام 45 هـ 665م.

عن كل هذا انظر ابن عبد الحكم: فتوح ص 242 -252- 253- 260 وما بعدها؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص14 : حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج1، ص 269، 271 : انظر كذلك ما سبق عند التعاليق: ، 61، 62، 63.

(82) - انفرد ابن عبد الحكم بالإشارة إلى أن معاوية بن حديج « اتخذ قيروانا عند القرن » أي أن أول معسكر إسلامي أقيم بافريقية كان على يده (فتوح ، ص260 ، 264.) أما البلاذري وابن عذاري والنويري فلم يذكروا شيئا من ذلك.

(83) - انظر: ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص260 وما بعدها؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص16؛ النويري، المرجع السابق، ص 184 وما بعدها : جورج مارسيه، المرجع السابق، ص 30/31؛ ع. العروي، التاريخ، ص 77؛ الناصري، استقصا ج1 ص77 وما بعدها.

(84) - انظر ابن عذاري، البيان، ج1، ص18 وما بعدها.

يبدو أن ولاية مصر أسندت بعد موت عمرو بن العاص إلى عتبة بن أبي سفيان مدة لا نستطيع ضبطها، ثم تولاها بعده عبد الله بن عمرو بن العاص، واحتفظ بها إلى سنة 47هـ (ابن عبد الحكم، فتوح ص242؛ البلاذري فتوح ص 320؛ ابن عذاري، البيان، ص18).

(85) - يطلق هذا الاسم على مجموعة من الواحات الليبية الواقعة إلى الجنوب من خليج سيرتا وقد ذكرها الادريسي قائلا . « وأما أرض ودان فإنها جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى ناحية البحر ، وكانت فيما سلف أكثر الأرض عمارة وكان الملك في أهلها ناشئا متوارثا إلى أن جاء دين الإسلام ، فخافوا من المسلمين فتوغلوا هربا في بلاد الصحراء فتفرقوا ولم يبق بها الآن إلا مدينة داود، وهي الآن خراب ليس بها إلا بقايا قوم من السودان...» : الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره هانري بيريس ، الجزائر 1957 ، ص23 . انظر كذلك: أبو عبيد البكري كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشره دوسلان ، باريس1965 ، ص11 ، 12 : قارن مع تعليق حسين مؤنس على « نص جديد عن فتح العرب للمغرب» السابق الذكر ، ص235 .

(86) - فزان اسم مجموعة أخرى من الواحات تقع إلى الجنوب الغربي من واحات ودان ، ومن أهم قصورها گارما وزويلا وتمسًا ،انظر الإدريسي، نزهة ... ص22 : البكري ، المغرب .. ، ص13

(87) - كاوار اسم مجموعة أخرى من الواحات تقع بعيدا جنوب واحات فزان، وتنتشر جنوب غرب تيبيستي على الحدود النيجرية (نيجر) والتشادية قريبا من الحدود الليبية الجنوبية. انظر الإدريسي ، نزهة ... ص26 ، البكري ، المغرب ... ، ص13 قارن مع برونشفيگ ، ابن عبد الحكم ... ص137 ، حيث يشك في كون عقبة غزا فزان.

(88) - ابن عبد الحكم ، فتوح ... ، ص262 وما بعدها .

(89) - انظر موريس لامبارد ، المرجع السابق ، ص 85، 220، 242،236 وما بعدها . انظر كذلك تاريخ المغرب للمجموعة السابق الذكر ص ، 122 ،190 .

(90) - كانت التجارة الصحراوية التي ازدهرت كثيرا في العهد الإسلامي قد شرع الأمازيغيون في ممارستها ابتداء من القرن الرابع الميلادي على الأقل. انظر موريس لامبارد ، المرجع السابق ، ص 242 : وكذلك:

-G.Marçais . "L'Afrique du Nord sous la domination musulmane" dans L'Afrique du Nord française dans l'histoire , Paris 1937 . p.79 sq .

- قارن مع ع. العروي ، التاريخ ص70 : وشارل أندري جوليان ، المرجع السابق ، ج1 ، ص152.

(91) - بلغ عدد المشاركين في الحملة أربع مائة فارس بالإضافة إلى أربع مائة بعير وثمانمئة قربة ماء (ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص262).

(92) - لم يذكر المصدر المعتمد أن عقبة فرض أموالا على سكان الواحات المذكورة، كما أنه لم يذكر أن الحملة حققت أهدافا دينية أو سياسية أو عسكرية.

(93) - انظر لامبارد ، المرجع السابق ، ص236 ، 242 وما بعدها .

(94) - إن السهولة التي تغلب بها عقبة بن نافع ، وبعدد قليل من المحاربين على أهل الواحات المذكورة يمكن أن يفسر كذلك - بالإضافة إلى ما افترضناه سابقا من إسلام لواتة وتحالفهم مع المسلمين - بكون نسبة كبيرة من سكان تلك الواحات هجروا مواطنهم في اتجاه الجنوب أو الغرب (انظر ما قبل تعليق 85)

(95) - ابن عبد الحكم ، فتوح ... ، ص264.

(96) - قارن مع ما ورد في تعليق حسين مؤنس على : نص جديد.. ، ص235 ومع العروي ، التاريخ ، ص77 .

(97) - مع أن الامبراطور البيزنطي ركز كل قواته المتمركزة في الغرب ، في صقلية للقضاء على حركة أحد منافسيه (انظر: جورج مارسيه La berbérie ص31 .)

(98) - نذكر على سبيل المثال أن نفوسة إخوان لواتة، وأن مزاتة بطن من بطون لواتة كذلك والقبائل الزناتية كذلك هي من إخوانهم. ومعلوم أن منطقة برقة وطرابلس وبلاد الجريد جنوب

تونس كانت كلها مواطن تكاد تنفرد بها هذه القبائل التي اصطلح على تسميتها بالقبائل البترية. انظر الاباضية بالجريد. ص14 وما بعدها . وكذلك كوتيي ، المرجع السابق ص231 وما بعدها..

(99)- انظر الإباضية بالجريد . ص20 . كتاب السيرة ، ص 171 هامش15. قارن مع عبيد الله بن عبد الحكم ، فتوح . ص218 . العروي التاريخ ، ص 77

(100)- انظر الاستقصا . ج1 ص79 . العروي التاريخ ص 78 - 77.

(101)- انظر جديد .. ص211 .

(102)- انظر ابن عذاري . البيان . ج1 ، ص 20 - 19 . جورج مارسيه La berbérie ص31 .) شارل اندري جوليان ، المرجع السابق ، ج 2 ص16 . كابريال كامپس ، المرجع السابق . ص131 . العروي . التاريخ ، ص77/78 . كوتيي ، المرجع السابق ، ص254 .

(103)- انظر العروي . التاريخ . ص 78.

(104)- يلاحظ أن ابن عذاري أهمل هنا الاشارة الى العدد الكبير من الأمازيغيين الذين انضموا إلى جيش عقبة. وكأن مشاركتهم هذه لا تكتسي أية أهمية في نظره.

(105)- البيان . ج1 ص19.

(106)- المرجع السابق. ص187.

(107)- حسن ابراهيم حسن . تاريخ الإسلام... ، ج1 ص280.

(108)- انظر تاريخ المغرب . مؤلف مشترك (بالفرنسية) ص48.

(109)- انظر جورج مارسيه La berbérie ص31 . العروي ، التاريخ ، ص74 .

(110) - انظر ابن عذاري البيان . ص12 . جورج مارسيه، La berbérie ، ص 131

(111) - انظر جورج مارسيه

"L'Afrique du Nord sous la domination musulmane"

، ص134. . حسن ابراهيم حسن. تاريخ الإسلام . ج1 . ص280 . ذكر ابن عبد الحكم (فتوح ، ص268) أن رجلا من الأمازيغ حالف عقبة في ثلاثين الفا.

(112) - انظر الناصري. الاستقصا . ج1 . ص73 . ابن منصور ، قبائل المغرب ، ص 304 وما بعدها، الإباضية بالجريد . ص14 وما بعدها . انظر كذلك .

- Jehan Desanges . Catalogue des tribus afriquaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil . Dakar 1962 . p.12.17 .

(113)- انظر ابن عذاري . البيان . ج1 . ص 38 - 42 .
استقصا ، ج 1 ص82 .
، انظر كذلك .

- Encyclopédie de l'Islam , Paris 1975 . t . I . p.1210

(114) - منطقة الزاب هي منطقة الواحات الواقعة جنوب الجزائر الحالية، ومن مدنها مسيلة وطبنة وبسكرة وتهودة وبادس (انظر كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول، الدار البيضاء، 1985 ص171 وما بعدها.

(115) - قبائل المغرب . ص305. انظر كذلك ص339 . قارن مع ابن عذاري البيان، ج1 ص25.

(116) - قبائل المغرب . ص301 . يقصد بن منصور هنا أن كلا الفريقين ينتمي إلى البدو الرحل مما جعل طبائع المنتمين إليهما متشابهة.

(117)- انظر ابن عبد الحكم فتوح . ص229 وما بعدها .
البلاذري فتوح . ص316 . 314 .

(118) ـ انظر كوتيي ، المرجع السابق ، ص234 :
انظر كذلك أحمد بن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ص497 .

(119) ـ انظر ابن عذاري، البيان ، ج1 ، ص 28 : عبيد الله بن عبد الحليم ، نص جديد ص220 : الناصري ، استقصا . ج1 ، ص82 : هانري تيراس ، المرجع السابق ، ج 1، ص81 .

(120) ـ انظر ابن عذاري، البيان ، ج1 ، ص 28 : ، استقصا ، ج1 ، ص 83-80 : ابن عبد الحليم ، نص جديد ، ص 220-210 : هامش1.

(121) ـ إن ظاهرة بناء المعسكرات ـ التي تحولت فيما بعد إلى مدن ـ رافقت الفتوحات الإسلامية منذ البداية، وفي هذا الإطار تأسست البصرة والكوفة بالعراق والفسطاط بمصر والقيروان بافريقية (انظر حسن ابراهسم حسن ، تاريخ الإسلام .. ج1 ص517 وما بعدها .

(122) ـ يكاد يكون هذا مؤكدا ، لأن عقبة من قرابة عمرو بن العاص ومن خريجي مدرسته السياسية لأنه لازمه منذ سنه المراهق، ولذلك فإن قصة عمرو بن العاص مع مصر لابد أنها كانت مثالا يدغدغ طموح عقبة بن نافع منذ دخل افريقية.

(123) ـ ابن عبد الحكم، فتوح 266 : والمقصود بعبد الأنصار هنا هو أبو المهاجر دينار الذي حل محل عقبة بافريقية.

(124) ـ ابن عبد الحكم، فتوح ص265 / 266 : كذلك ابن عذاري ، البيان ، ج 1 ص22 .

(125) ـ ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص21 / 19 .

(126) ـ انظر ابن عبد الحكم، فتوح 266 .. ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص22 .

(127) ـ ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص21.

(128) ـ ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص22 : كذلك النويري ، المرجع السابق ص 189ـ 190:

(129) ـ المرجع السابق ص 190 هامش30: كذلك أبو العرب ، طبقات ، ص57 : محمود اسماعيل مغربيات ، ص90 : كذلك ابن خلكان ، وفيات ، ج1 ص55 .

(130) ـ انظر ابن أبي زرع ، القرطاس ، ص191 : الناصري ، استقصا ج2 ، ص30 روبير پرونشڤيگ ، ابن عبد الحكم ، ص138 ـ 139: وكذلك:

- E.Laoust , L'habitation chez les transhumants du Maroc central , Paris 1937 , p.217-218.

(131) ـ مغربيات ص89 .

(132) ـ انظر ابن عبد الحكم، فتوح ص262 وما بعدها : ابن عذاري ، البيان ، ج1 ، ص29 : النويري ، المرجع السابق ص193 : العروي ، تاريخ ، ص81 .

(133) ـ انظر ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص 28 : الناصري ، استقصا، ج1 ، ص80 العروي تاريخ ، ص78 .

(134) ـ انظر على سبيل المثال ابن عذاري والنويري.

(135) ـ انظر عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت1960 ، ص 122 وما بعدها ، ص131وما بعدها.

(136) ـ مغربيات ، ص89 / 88 : يمكن أن نستثني مع ذلك بعض كتابات الخوارج المغاربة التي تعطي عن الفرس صورة متألقة تكاد تنفرد بها ، وهذا راجع للدور الهام الذي لعبوه في نشر المذهب الخارجي بالمغرب الكبير وتوعية الأمازيغيين بحقوقهم الدينية والسياسية والقومية (انظر كتاب السيرة لأبي زكرياء ص44 وما بعدها).

(137) ـ انظر ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص29 - 28 : النويري ، المرجع السابق ، ص190 وما بعدها · الناصري ، استقصا ، ص80 وما بعدها.

(138) ـ إن أهمية هذا الحادث لا تتجلى في نتائجه الظرفية الإيجابية فحسب ، بل في نتائجه البعيدة ، والتي تجلت بصفة خاصة في الدور الرئيسي الذي لعبته أوربة في تأسيس الدولة الإدريسية فيما بعد. انظر دائرة المعارف الإسلامية (بالفرنسية) ، مادة «كسيلة ».

(139) ـ انظر النويري ، المرجع السابق، ص 198 - 199، ـ 211
ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص 38 39 - 48 :
الناصري ، استقصا ،ج 1 ص 94 - 93 ، 101،

(140) ـ انظر ابن عذاري ، البيان ، ج1 ص23 : النويري ، المرجع السابق، ص190.

(141) ـ انظر الناصري ، استقصا ، ج1 ص81 .

(142) ـ المرجع السابق ، ص193

(143) ـ انظر ابن عذاري ، البيان ،ج1 ، ص28 وما بعدها : النويري ، المرجع السابق ، ص193 وما بعدها · العروي ، تاريخ ، ص78.

(144) ـ تاريخ ، ص193 ، وهذا ما قيل في عقبة : «حدثنا عبد الملك بن مسلمة (...) قال: كنت عند عبد الله بن عمرو بن العاص حين دخل عليه عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري ، فقال: ما أقدمك ياعقبة؟ فإني أعلمك تحب الإمارة. قال: فإن أمير المؤمنين يريد العقد لي على جيش إلى افريقية. فقال له عبد الله بن عمرو. إياك أن تكون لعنة أرامل أهل مصر» (ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص268.

(145) ـ انظر ابن عذاري ، البيان ،ج1 ، ص23 وما بعدها : ابن عبد الحليم ، نص جديد .. ، ص219 وما بعدها : أما البلاذري فقد ذكر أن موسى بن نصير هو أول من نزل طنجة من القواد المسلمين ، فتوح ، ص322.

(146) ـ ابن عبد الحكم ... ص138 : نص جديد .. ، ص197.

(147) ـ نص جديد .. ، ص197.

(148) ـ العروي ، تاريخ ، ص78.

(149) ـ نص جديد .. ، ص225 : انظر ابن عذاري ، البيان ،ج1 ، ص23 وما بعدها ، وخاصة الصفحة27 · النويري ، المرجع السابق ، ص192.

(150) ـ عين على أفريقية عام 62 هـ (البيان 1ص23) ، في منتصف62 هـ (نص جديد ، ص236) ، قتل سنة63 (نص جديد ، ص220) ، دخل كوسيلا القيروان في محرم 64 (البيان1 ص30) ، أي أن الحملة استغرقت سنتين على أكثر تقدير ودون سنتين على أقل تقدير.

(151) ـ ابن عذاري ، البيان ،ج1 ، ص23 وما بعدها : نص جديد ، ص215 وما بعدها 199،.

(152) ـ البيان ،ج1 ، ص51 : أما البلاذري فقد نسب هذا العمل إلى عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ، فتوح ، ص324. انظر كذلك ، الناصري ،
استقصا ، ج1 ، ص105 106، قارن مع ما ورد في الصفحة83 من نفس الكتاب.
يلاحظ أن المصادر المغربية بصفة خاصة لم تعط عن جولة حبيب بن أبي عبيدة هذا مثل التفاصيل التي أعطتها عن جولة جده عقبة بن نافع مع أن المنطق يقتضي أن تكون حملة الحفيد معروفة أكثر من حملة الجد.

(153) ـ انظر برونشفيك ، ابن عبد الحكم .. ، ص 149- 137.

(154) ـ نص جديد .. ، ص225 ـ 226 ، 219 ـ220.

(155) ـ البيان ،ج1 ، ص42 .

البحوث والدراسات التي تنشر
بالمجلة تعبر عن رأي كتابها

تقديـــم

إن ما يتضمنه هذا البحث الذي كتب في سنوات الثمانينات هو محاولة أولية لإعادة طرح مختلف المشاكل المتعلقة بعمليات الفتح ـ الغزو. والتقلبات السياسية والمذهبية التي صاحبتها أو نتجت عنها.

أما الهدف المقصود فهو لفت نظر الباحثين إلى ضرورة الإقلاع عن تقديس المصادر التاريخية وعن قراءتها قراءة فقهية سلفية أو عروبية.

بذلك سيتمكنون من تصور تاريخ الفترة بكل مشاكلها. وستكون فيها الأخبار الموجودة في جل المصادر دعامة ووسيلة إيضاح فقط لإلقاء الأضواء على الجوانب التي بقيت في مناطق الظلال الكثيفة إلى يومنا هذا. كالدور الرائد للشعوب الأمازيغية. مثلا. في فتح شمال إفريقيا والأندلس للإسلام. وغزو جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوب فرنسا الحالية ونشر الإسلام في كل بلاد الأمازيغ والصحراء وجنوب الصحراء. وكذا المقاومة الأمازيغية ضد العرب والتي لم يواجهوا مثلها في أي مكان آخر. وتسلط عمال وولاة بني أمية على السكان الأمازيغ حتى بعد إسلامهم وممارستهم في حقهم لكل أنواع الشطط والسلب والنهب... مما يندى له جبين كل مسلم حقيقي...

فإذا تمكن المورخ المغربي والمغاربة عامة من تجاوز ضغوط الإيديولوجيا المتجددة والتي سلبته طاقاته الإبداعية فقد تتجدد نظرته إلى تاريخ بلاده ويصبح موقفه منها إيجابيا. وإذا وقع ذلك فسيكون بداية أفول عقلية بالية لا تجتذب المجتمع المغربي إلا إلى الوراء.

ص.ع.أ

الرباط في : 2001/04/18

الثمن : 18 د

